سلسلة الأدب

الجبل

رواية

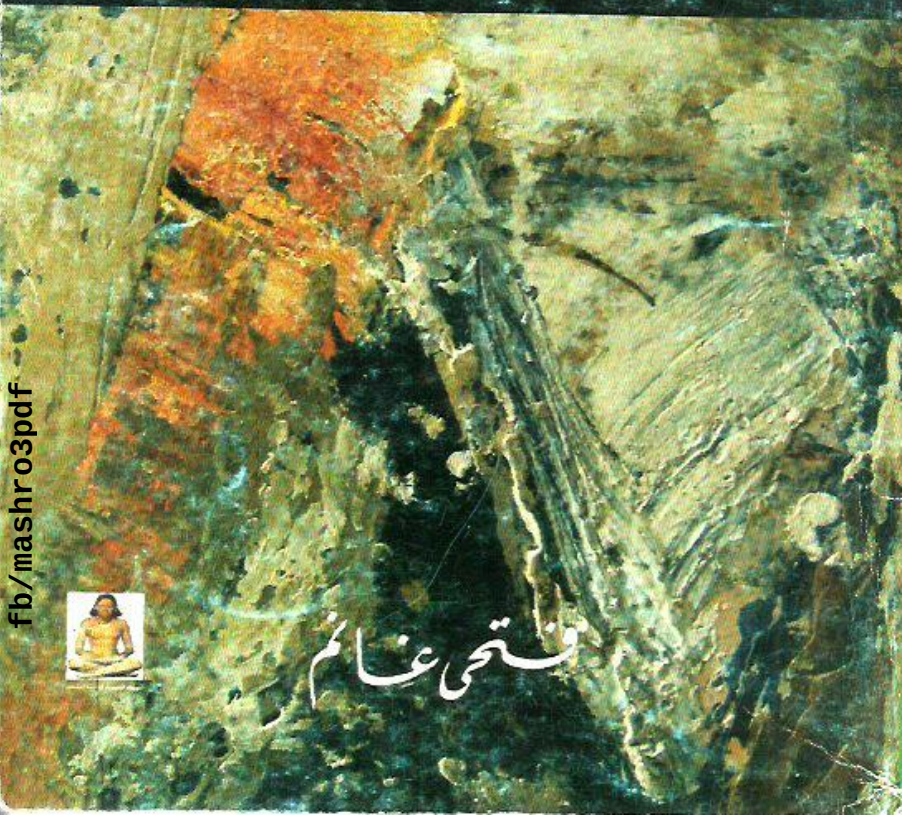

فتحي غانم

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الجَبَلُ

المشرف العام

د . محمد صابر عرب

تصميم الغلاف

د . مدحت متولى

الإشراف الفنى

ماجدة عبد العليم
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

المجلس القومى للشباب

وزارة التنمية الإقتصادية

fb/mashro3pdf

الجبل

رواية

فتحي غانم

fb/mashro3pdf

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : منير كنعان

غانم، فتحى .

الجبل : رواية / فتحى غانم .- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٥٦ ص؛ ٢٠ سم . (سلسلة الأدب).

تدمك ٦ - ٧٧٥ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٧١٢ / ٢٠١١

I.S.B.N 978-977-421-775 -6

ديوى ٨٠٨,٨٣

fb/mashro3pdf

إلى

بدر وبيتا وبتينا

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الأول

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

حدث منذ أكثر من سبع سنوات، وكنت أعمل في ذلك الوقت مفتشًا للتحقيقات بوزارة المعارف أن مررت بتجربة مريرة صدمتني وحولت كثيرًا من الأفكار التي في رأسي إلى مجرد سخافات.. فكل شيء كنت أصدقه وأومن به كوسيلة لإصلاح مجتمعنا.. تبخر من رأسي كما يتبخر الماء من آنية تغلي فوق النيران.

ناداني مدير التحقيقات، ولما دخلت عليه رأيته يبتسم، وأنا أعلم جيدًا ماذا تعنيه هذه الابتسامة المؤدبة التي تعكس مشاعر الحرج والاعتذار.. لقد اعتدت أن أرى هذه الابتسامة على وجهه، كلما كلفني بعمل شاق مفاجئ، ولكني لم أدرك في تلك اللحظة أن ما سأقوم به سيعرِّضني إلى خطر الموت، خطر القتل في جبل في الصعيد.

خفض المدير من بصره، وهو يعبث بأصابع قلقة بورقة من حجم الفولسكاب؛ مثبتة أمامه في ملف أوراق أصفر اللون وقال بصوت حاول جاهدًا أن يكون رقيقًا حنونًا:

– أنا فكرت كويس، وقلت لنفسي إنك لسه شاب صغير. ومش متجوز.

واستطاع المدير بهذه الكلمات القليلة أن ينقل إليَّ القلق البادي في أصابعه، انتقل القلق من يديه العابثة بالورقة الفولسكاب إلى قلبي.

ولم أرد عليه، لأني لم أفهم ماذا يريد مني بالضبط، وماذا يعني بما يقول.

fb/mashro3pdf

واستمر المدير يقول بصوت يزداد رقة وحنانًا:

— إحنا كلنا متجوزين، وعندنا أولاد، وحرام يروح واحد متجوز في هذه المهمة.

وزاد قلقي.. وانتعش فضولي.. فهذه أول مرة أسمع فيها عن مهمة لا يصلح لها مفتش تحقيقات متزوج وله أولاد، لقد سمعت من قبل عن تحقيقات لا يكلف المدير الشبان العزاب القيام بها، كأن يكون التحقيق في قضية خُلقية في مدرسة بنات، عندئذ يبحث المدير عن أحد المحققين المتزوجين الذين يتسمون بالوقار، ويشتهرون بالتدين الشديد، والتزمت في مراعاة أداء الفروض الدينية، ويكلفه وهو مطمئن بأن يقتحم مدرسة البنات ويحقق في أسرار المدرسات وبنات الداخلية.

وكنا نحن العزاب من المحققين نسخر من مثل هذا الاختيار ونتساءل: كيف يفهم أحد الدراويش المشاكل الخُلقية، وقضايا الحب والغرام، وكيف يحكم بالعدل، ذلك المحقق المتزمت في أمور الدين؟ إنه ولا شك ينظر إلى أية امرأة على أن مجرد وجودها خطيئة، ومجرد لمسها ينقض وضوءه، فما باله عندما يفكر في أنها أحبت، أو شوهدت تذهب إلى السينما مع أحد الشبان! سيتهمها قطعًا بالفجور والدعارة، وسيطالب بفصلها من عملها وسيكتب في تقريره أن هذه المدرسة لا تصلح لتربية الفتيات، أو أن هذه البنت التلميذة كالميكروب يجب إبعادها عن بقية البنات قبل أن تنقل إليهنّ العدوى.

وكان المدير يسمع احتجاجنا نحن العزاب، وهو رجل طيب تقي، فيهز رأسه مستنكرًا ويقول:

fb/mashro3pdf

- إنتم عايزين تروحوا تحققوا في قضايا زي دي، وترجعوا تقولوا المدرِّسة شريفة لأنها أحبت حبًا شريفًا، ومن حقها أنها تختلط بالرجال، أنا عارف كويس أفكاركم اللي حتخرب البلد، وبس فالحين تقولوا على نفسكم إنكم متحررين، وإننا ناس بتوع زمان، أيامنا انتهت وخلاص راحت علينا.

كان هذا هو نوع القضايا الخطيرة والمهمة التي يدور حولها النقاش في إدارة التحقيقات، ولكني لم أسمع من قبل عن قضية تصلح للشبان العزاب فقط، ولا تصلح للمتزوجين.

وقلت للمدير وأنا ما زلت في حيرة تامة:

- خير إن شاء الله.. إيه الحكاية؟

فسكت برهة، كأنه يدرس بعناية ما سيقوله لي. وأخيرًا رفع رأسه وحدق في يتفحصني، ثم قال:

- ثم أنت صحتك كويسة، وما شاء الله اللي يشوفك يفتكرك ملاكم والّا مصارع.. فيخاف منك.

فسألته في دهشة:

- هو أنا رايح تحقيق.. والّا خناقة؟

فضحك المدير وقال:

- أنت رايح عند جماعة حرامية.
- وإحنا ما لنا ومال الحرامية.. دا شغل البوليس والنيابة.
- الموضوع كله متعلق بوزارة المعارف لأنه خاص بالآثار.

fb/mashro3pdf

فقاطعته:

- فين؟

- في الجبل الغربي أمام الأقصر.. يعني تنام بالليل في الأقصر.. هناك استراحة فخمة لمصلحة الآثار بينزل فيها الأب دريتون، وحتلاقي طباخ عظيم، وأكل كويس ورخيص، وبيت يطل على النيل.. لكن يا بطل الصبح تعدي النيل وتروح الجبل.

- عند الحرامية؟

- تمام.

فسألته ضاحكًا في غير فهم:

- ودول أعمل فيهم إيه.. أمسكهم.. أقبض عليهم؟

فمد يده بالملف إليّ قائلاً:

- كل حاجة في الملف ده.. أنا أشّرت عليه.. وحولته عليك وكلمت مصلحة الآثار علشان يحجزوا لك الاستراحة.. وتسافر الليلة أو بكره على طول.. لأن مفيش وقت.. القضية مستعجلة.

وأمسكت بالملف، وقرأت تأشيرة المدير في أعلى الورقة الفولسكاب، وقد كتبها بالحبر الأحمر. عاجل للأستاذ فتحي غانم للتحقيق، وعبرت الكلام المكتوب على الورقة، بحبر أزرق ثقيل وخط اعتدت قراءته أثناء تحقيقي مع المدرسين الإلزاميين خط أنيق.. كتب بعناية شديدة، وفي أسفل الورقة توقيع باسم "حسين علي" عن أهالي قرية الجرنة.

fb/mashro3pdf

ودق جرس التليفون في تلك اللحظة ورفع المدير سماعة التليفون وانهمك في حديث طويل، لم أنتبه إليه.. كنت منهمكا بدوري في قراءة ما كتبه "حسين علي".

ومنذ وقعت عيناي على السطور الأولى أحسست بأني أنتقل إلى عالم غريب.. عالم بعيد عن الواقع.. فيه خيال وأحلام.. فهذه هي طريقتنا نحن؛ أبناء المدينة عندما نواجه مجتمعًا آخر، غير المجتمع الذي اعتدنا عليه، نحوّله في الحال في رؤوسنا إلى وهم، أو قصة أو فيلم أو أسطورة.

هذه هي طريقتنا في تخيل تلك المناطق البعيدة النائية في قلب الريف.. إن الذين يسكنون في المدينة ينسون أهلهم الذين يسكنون في القرى وفي مجاهل الريف، يتجاهلون وجودهم، انفصام تام يحدث بين الأهل، وبين الآباء والأبناء فتقطع صلات القربى والدم، ويذهب كل فريق إلى حاله. فريق يعيش في مصيدة الريف وفريق يعيش في مصيدة المدينة، ولا صلة هناك بين الفريقين سوى صدقة أو إحسان متقطع من المدينة إلى الريف، أو زيارة تقابل بالفتور والانزعاج من الريف إلى المدينة.

"حسين علي" يتكلم باسم أهل قرية الجرنة.. وأنا لا أعرف مكانها، و لم أسمع عنها من قبل.. كل ما أعلمه ما سمعته منذ لحظات من المدير، وهي أنها تقع قبالة مدينة الأقصر، وأن فيها "حرامية".. ولكن "حسين علي" لا يبدو أنه أحد "الحرامية" إنه يشكو.. يشكو الحكومة من أجل سبب عجيب؛ أن الحكومة تشيد قرية نموذجية، وهو ومعه جميع أهالي القرية يرفضون الانتقال إلى القرية النموذجية.. لماذا؟ وهنا شعرت بعقل ماكر يكتب، إذ مضت الشكوى تعدِّد أنواعًا من الاختلاسات والسرقات،

fb/mashro3pdf

في أخشاب وطوب وأدوات البناء في القرية النموذجية.. ما صلة هذه التهم بانتقال الأهالي إلى المساكن النموذجية.. هذا هو ما سيكشف عنه التحقيق، ولماذا يرفض أهالي الجرنة الانتقال إلى قرية نموذجية تشيدها الحكومة لهم؟ هذا أمر آخر لابد أن يتكشف عنه التحقيق.. كنت أقرأ الشكوى، وأنا أفكر في خيوط أبدأ منها التحقيق، محاولاً أن أعرف بسرعة كم سأمضي من الوقت في هذه القضية وأقدر لنفسي يومًا أو يومين على الأكثر، أسأل فيها الأسئلة الجوهرية، وأكتب الإجابات في المحضر، وأنتهز الفرصة وأزور الآثار في المنطقة، ثم أعود إلى القاهرة.

وكان المدير قد فرغ من محادثته التليفونية، ولاحظ أني أقرأ الشكوى بعد أن فرغت من القراءة:

- ولكن فين الحرامية؟

فضحك قائلاً:

- أصل أنا زمان رحت في تحقيق في المنطقة دي، كنت لسه مفتش تحقيقات صغير ومش متجوز.. وكانت الدنيا واقفة على رجل، لأن أهالي المنطقة بيسبقوا علماء الآثار ويكتشفوا المقابر وينهبوا الكنوز اللي فيها ويهربوها.. تصور أن ثروة البلد التاريخية، ومجد الفراعنة كله، نهبوه الناس دول!

- وعملتم إيه؟

fb/mashro3pdf

رحنا.. ومعانا البوليس والنيابة والأب دريتون مدير مصلحة الآثار.. وبعدين قررنا أن لابد من نقل كل الناس اللي عايشين في الجبل من مكانهم، واقترحت لجنة التحقيق إنشاء قرية نموذجية علشان يتنقلوا فيها.. الكلام ده كان من خمستاشر سنة.. ومرت الأيام، وبنت الحكومة القرية، لكن الأهالي مصممين يفضلوا مكانهم في الجبل.

- والحكومة حتعمل إيه؟

فقال المدير في حماس:

- لابد من إنقاذ ثروتنا القومية.. يتنقلوا بالقوة.. حد يرفض التمدن، دول ناس جهلة.. حرامية.

فقلت له:

- لكن الشكوى دي من الأهالي.. مش من الحكومة.

فهتف المدير:

- ما هي دي طريقتهم في مقاومة النقل.

وخيل إليَّ أني وجدت مخرجًا من هذه الورطة التي أنا مقبل عليها.. طرأت على رأسي فكرة، فأسرعت أقول للمدير:

إذن فلا داعي لسفري.. ما دامت هذه الشكوى مجرد حجة لتأجيل نقل الأهالي.

فنظر إليَّ المدير في خبث كأنه يعلم جيدًا ما يدور في رأسي من خواطر وقال:

fb/mashro3pdf

- إنت خايف تروح. إحنا قدامنا بلاغ عن سرقات واختلاسات ولابد أن نحقق في هذا البلاغ، ومسألة معرفتك بسبب هذا البلاغ لا دخل لها في التحقيق. مين عارف. يمكن فيه سرقات واختلاسات فعلاً.

وكنت أعلم أنه على حق.. فطويت الملف واستأذنته في الانصراف.. فودعني قائلاً:

- خد بالك من نفسك.. رجالة الجبل شداد، ومش زي الرجالة التانية.. على العموم يومين متروحش فيهم السينما بالليل مع صحابك مش حاجة.

فقلت له في ضيق لم أحاول إخفاءه:

- لأ.. مش حاجة.

وانصرفت عائدًا إلى مكتبي، وبدأت أروي لزملائي عن المهمة التي أنا مقبل عليها.. كنت أحاول أن أظهر أمامهم في صورة البطل الذي قبل عن طيب خاطر، أن يقوم بمغامرة خطيرة في الصعيد.. وكنت أتكلم عن الحرامية.. كأني أعرف الناس الذين سأواجههم.. كانت الصورة التي أرسمها في ذهني لي ولزملائي.. أنهم كالخط وأمثاله من وحوش الجبل من زعماء عصابات الصعيد، الذين نرى في الجرائد صور جثثهم بين وقت وآخر، وقد وقف على رأسها مأمور المركز أو الحكمدار وفي يده المسدس، ومن حوله ثلاثة من ضباط البوليس وعشرات الخفراء وقد شهروا بنادقهم أمام المصور.

fb/mashro3pdf

وإذا بأحد زملائي يصيح في ذعر:

- إزاي تسافر هناك دلوقت.

فقلت له:

- ليه.. فيه إيه هناك؟

فمد يده إليَّ بصحيفة كان يقرأها وهو يقول:

- مكتوب في الجرنال.. إنهم هجموا على القرية النموذجية أول امبارح وحرقوها، وقلبوا ترولي.. أنت رايح في وقت خطير!

***

ووجدت نفسي صباح اليوم التالي في محطة القاهرة أصعد عربة تكييف الهواء في قطار الثانية عشرة ظهرًا المسافر إلى الصعيد.. كانت تصرفاتي عادية، لكن رأسي لا يخلو لحظة واحدة من صور خيالية مبهمة عن لصوص يعيشون في جبل قبالة الأقصر، عليَّ أن أواجههم في لحظة حاسمة.. لحظة يحرقون فيها قرية، ويقلبون ترولي، ويتحدون الحكومة، وتكتب عنهم الصحف أخبارًا بعناوين بارزة.

كنت أشعر بالخطر بطريقة مائعة.. إنه خطر أعرفه من خلال كلمات سمعتها.. ومن خلال سطور قرأتها في الصحف.. خطر بارد متجمد، لا يؤلمني ولا يفزعني.. ولكنه يسيطر على عقلي ويقلق أفكاري.. إنه خطر من نوع غريب.. خطر أشعر به وأنا جالس على مقعد وثير في عربة مكيفة الهواء.

وكانت العربة مزدحمة بنساء أنيقات يتكلمن بالفرنسية أو باللهجة الصعيدية. ولا فرق بين نعومة اللغتين، إن اللهجة الصعيدية على لسان

fb/mashro3pdf

المرأة الصعيدية، تصبح ممطوطة مرنة ناعمة وفيها رقة.. وكل الجفاف الذي يشعر به سكان الشمال في اللهجة الصعيدية، مرجعه إلى أنهم لا يحسنون نطق هذه اللهجة.. فتبدوا إذا حاولوا تقليدها منفرة متكسرة.. تمامًا كما تتلف رشاقة اللغة الفرنسية على لسان من يجهل طريقة النطق بها.

كان رجل صعيدي أنيق أسمر يودع صعيدية شقراء لها عينان زرقاوان، كان يودعها لأنها عائدة إلى أسيوط، وهي تودعه لأنه مسافر إلى فرنسا.

وقالت الصعيدية الشقراء للرجل الأسمر بفرنسية عذبة:

– متى تصل إلى باريس؟

وأجابها الرجل:

– أصلها بعد غد.

فقالت المرأة في حرارة:

– قبّل لي باريس على وجنتيها قبلتين.

فصاح الرجل في حماس:

– قبلتين فقط.. إن باريس عشيقتي.. سأقبلها ألف قبلة!

ثم انطلقت الشقراء تقول بالصعيدية فجأة:

– متنساش تجفل البيبان والشبابيك مليح.. وتشيل خلجاتك في الدولاب جبل ما تمشي.. وتجفل الدولاب.. إوعى تنسى كوبس النور.. يعمل حريجة بعدين.. نبجى نجولو يا ريت.. ما ينفعش!

وصدمتني حروف الجيم التي طردت "القافات" من الكلمات وصدمتني كلمة "الخلجات" التي تستعملها الشقراء بدلاً من كلمة

fb/mashro3pdf

"الملابس".. وأثرت في تلك النغمة من الندب في كلام الشقراء.. وهي تقول "نبجى نجولو يا ريت.. ما ينفعش".

كنت أنتقل محمولاً بهذه اللهجة الصعيدية إلى أقاصي الصعيد والقطار لم يتحرك بعد من محطة القاهرة.

إنه شيء محير حقًا، أن ترى صعيدية وشقراء وزرقاء العينين تحب باريس وترسل لها القبلات، وتتكلم في نفس الوقت باللهجة الصعيدية بكل ما فيها من كلمات عتيقة ونغمات الندب والنغم الحزين.

هذه الشقراء وزوجها الأسمر، يمثلان الطبقة الغنية المثقفة في الصعيد.. يمثلان القمة في مجتمع يقبع في أسفله "حسين علي" الذي يشكو الحكومة باسم أهالي الجرنة، والحرامية الذين يحرقون القرية النموذجية ويقلبون الترولي.

كيف تعيش الطبقتان جنبًا إلى جنب في صعيد واحد؟ كيف يعيش عشق باريس مع عشق الجبل.. كيف تعيش الشقراء الخائفة من "حريج" يسببه "كوبس النور" في بيتها في نفس البيئة التي يشعل فيها الناس "حريجًا" في قرية كاملة.

هناك في عربات الدرجة الثالثة تحتشد مئات النماذج من "حسين علي"، جالسين على المقاعد الخشبية، إلى جانب نسائهم في ملابسهن السوداء، وعيالهن الحفاة متسخي الملابس، عائدين إلى قراهم النائية في أقاصي الصعيد.

فارق هائل بين الدرجة الثالثة وتكييف الهواء في قطار واحد، إنه الفارق بين السلة المملوءة بالشاي والسكر والبيض والملقاة بين المقاعد الخشبية..

fb/mashro3pdf

وبين تلك الحقائب الجلدية الفاخرة المكتظة بالملابس الصوفية والحريرية، وزجاجات العطر، وأربطة العنق والأرواب دي شامبر.. إنه الفارق بين السلة المحمولة فوق رأس امرأة مسافرة، وبين الحقيبة التي يحملها الحمال في عناية، ويمشي أمامه صاحب الحقيبة أو صاحبتها ثم يقبض الحمال على ورقة مالية بعد أن يفرغ من مهمته.. إنه الفارق بين المقاعد الخشبية والمقاعد القطنية الوثيرة ذات المفارش المغسولة المكوية.. إنه الفارق بين جردل فيه زجاجات مملوءة بماء ملون، يحاول عبثًا أن يبيعها شاب حاف قد رفع طرف جلابيته فوق كتفه.. فظهر سرواله الطويل يصل إلى ركبتيه، وبين "جرسون" أنيق يلبس الجاكت الأبيض والبنطلون الأسود، وينحني في أدب ويقدم القهوة التركية والشاي الهندي في فناجين من الصيني، وإلى جانبها أكواب الماء المثلج.

ودق الجرس الأول، يعلن أن القطار على وشك الرحيل، وودع الرجل الأسمر زوجته الشقراء، ونشطت الحركة فوق الرصيف، مسافر متأخر يريد اللحاق بالقطار، وبائع صحف يريد أن يبيع جريدة أخرى، وصيحات المودعين تختلط بصيحات المسافرين، وزاد مع الضجيج قلقي، ونظرت في حيرة إلى الرصيف، ونظرت في حيرة إلى حقيبة الأوراق الموضوعة على الرف فوق رأسي.. داخل هذه الحقيبة ورقة هي السبب في كل ما أنا مقدم عليه.. ورقة مكتوبة من رجل لا يركب القطار إلا في الدرجة الثالثة.. وربما لم يركب القطار ولم يره في حياته، وأنا ذاهب إليه لأفتح معه محضر تحقيق، ولأسأله ما اسمك وما عنوانك، وما هي تفاصيل شكواك؟

fb/mashro3pdf

ودق جرس الرحيل، وانطلقت صفارة القطار، وانطلق البخار المحبوس في صدار القاطرة.. وتحرك القطار في رحلته.

***

كلما توغل القطار في ريف الصعيد، زاد شعوري بالانكماش داخل عربة تكييف الهواء.. كل ما حولي من مناظر النخيل العالي، والقرى السوداء، والماشية التي ترعى والفلاحين العائدين من حقولهم، والأطفال الذين يستحمون في الترع، والنساء المتشحات بالسواد يمشين بقامتهن الرشيقة المتهادية.. كل هذه المناظر لا صلة لها بالعالم الذي خرجت منه عربة تكييف الهواء.. تحولت هذه العربة إلى جزيرة صغيرة وسط بحر غريب من الخضرة والسواد والجبال الصفراء العالية عند خط الأفق.

من الصعب أن أخرج الآن من هذه العربة.. كان ذلك سهلاً وأنا في محطة القاهرة.. فالمدينة الكبيرة الواسعة تنتظرني.. أما هنا فسيتلقفني المجهول.. كل ما يحيط بي هو عالم ركاب الدرجة الثالثة. إنهم الآن يتنفسون بحرية أكثر، ويستقبلون بأعينهم مناظر مألوفة لديهم.. أما أنا فلا أملك إلا الحذر والقلق والانكماش في مقعدي المريح.

وكانت الساعة العاشرة ليلاً، عندما وقف القطار في محطة الأقصر.. الأنوار صفراء، كأنها مضاءة بغير نور.. كأنها مجرد لون أصفر وسط سواد الليل، وعربات الحنطور قليلة، والبلدة خالية من الناس.. صامتة.. وللصمت طنين في الأذن التي اعتادت على ضجة القاهرة.

fb/mashro3pdf

ومضى بي الحنطور إلى استراحة الآثار، سارت العربة على مهل في طريق بحذاء النيل الذي لم أتبينه في ظلام الليل، وحدَّقت محاولاً أن ألمح شيئًا من الشاطئ الغربي، حيث ينام "حسين علي" الآن، فلم أتبين شيئًا.. كان الشاطئ الآخر أسطورة سوداء، لا بصيص نور، ولا صدى صوت، ولا حتى شبح ينبئ عن وجوده، وفجأة راعني معبد ضخم، وممتد لمسافة طويلة.. الأعمدة الهائلة، والتماثيل الواقفة لملوك متوجين، وملوك جالسين، وكتل ضخمة من الحجارة متناثرة كفتات خبز هائل الحجم تأكل منه الآلهة.

وانكمشت مرة أخرى في مقعدي بالعربة الحنطور، وأحسست بالوحدة، وتتابعت دقات قلبي مع دقات حوافر الحصان على الأرض.. والسائق غارق في صمت فرعوني، لا ينبس بكلمة واحدة.

ووقفت العربة أخيرًا وفي نهاية الطريق.. عند بيت أنيق له حديقة، ولا يبدو أن مخلوقًا داخله.

وهبط السائق من العربة، ونادى بأعلى صوته.. وتكرر نداؤه.. وهبطت بدوري، وصفقت بكلتا يدي.. ولا مجيب.

وقلت للسائق في حيرة:

– دي استراحة الآثار.. إنت متأكد؟

فأجابني في وجوم:

– أيوه.

وصفقت من جديد.. ونادى السائق من جديد.. ولا مجيب.

fb/mashro3pdf

و لم أستطع احتمال الغموض الذي يحيط بي، ولا الوحدة التي تشتد من حولي، فقلت للرجل:

– هوه ما فيش حد هنا؟

فأجابني الرجل بهدوء قاتل:

– ما نعرفوش!

إنه لا يدري شيئًا.. ونظرت إليه في عصبية، كأنه مسئول عن نظام الاستراحات في وزارة المعارف.

وقلت له يائسًا:

– يالّا.. على ونتر بالاس.

وقطعت الطريق الطويل بحذاء النيل، وأنا أحصي النقود في جيبي، وهل تكفي للمبيت ليلة في هذا الفندق الذي يهبط فيه مليونيرات العالم والسواح الأمريكيون.

وصعدت سلم ونتر بالاس الرخامي، وقلبي واجف، ولا أكاد أرى شيئًا من الأنوار الباهرة، ولا أكاد أسمع شيئًا من ثرثرة أمريكيات مسنات في الشرفة التي يفضي إليها السلم.

وفجأة رأيت جسم رجل يعترضني ويحدق في.. وانتفضت كالملسوع.. ثم صرخت في فرح.. إنه صديق قديم.. زميل لي في كلية الحقوق.. لقد نسيت تمامًا أنه وكيل نيابة الأقصر الآن.

ودون أن يأخذ رأيي، كان قد أصدر أمره بحفظ حقيبتي عند موظف الفندق، حتى يأخذني إلى بيته لأنام معه.

fb/mashro3pdf

وفي لحظة انتشلني صديقي من وحدتي وغربتي، وكان الحديث يدور حارًا بيننا، ونحن جالسون في بهو الفندق، وإلى جانبنا سائح وسائحة يلعبان النرد، بزهر من المطاط لا يحدث صوتًا.

قلت لصديقي وكيل النيابة:

– إيه اللي حصل في حريق القرية النموذجية؟

فسألني في دهشة:

– حريق إيه؟

فقلت له:

– موش حرقوا القرية.. وقلبوا الترولي.

فزادت دهشته وقال:

– فين الكلام ده؟

قلت له:

– هنا.. في الشط الغربي.. في القرية النموذجية.

فعاد يؤكد لي وهو يتفحصني كرجل يهذي:

– ما سمعتش عن حاجة زي كده.. هي القرية النموذجية دي فين؟!

ورويت لصديقي مهمتي، وكان يستمع إليَّ في دهشة، قلت له عن "الجرنة" التي تقع في الشاطئ الغربي أمامنا، ورويت له عن القرية التي شيدتها الحكومة لأهل الجرنة، حتى ينتقلوا إليها، ويكفوا عن سرقة الآثار، وعن تمسك أهل الجرنة بالجبل الذي يسكنون فيه، حتى يستمروا في نهب الآثار.

fb/mashro3pdf

وهز وكيل النيابة كتفيه وقال:

- على العموم.. الشط الغربي خارج حدودنا.. خارج حدود القانون والمدينة ومشاكل الأمن والبوليس، لا يوجد الآن في هذه اللحظة من الليل رجل بوليس واحد هناك، ولا أجنبي واحد، لا من السياح ولا منا نحن، حتى أهل الأقصر لا يجسرون على البقاء في الشاطئ الغربي بالليل، قد نستطيع الذهاب في الصباح كسواح أو علماء آثار، ولكن بمجرد أن تغيب الشمس يرحل الجميع، ويبقى أهل الجبل مع الجبل وحدهم، لا تشاركهم فيه الدولة ولا أي مخلوق آخر.

- فسألته:

- والمهندس الذي بنى القرية النموذجية.. كيف استطاع بناءها؟

فسكت قليلاً كأنه يتذكر شيئًا، ثم هتف:

- المهندس.. نعم تذكرت.. هنا مهندس مشهور شفته هنا مع أجانب وسواح.. مهندس شيك وشكله زي الفنانين الكبار الأجانب..

ثم نظر إلي في اهتمام وقال:

- ده حتى الأميرة مهتمة بيه.. تعرف أنها هنا. يمكن تفوت قدامنا دلوقت!

ولم أستطع أن أظفر من صديقي بإجابة مفيدة عن الأسئلة التي تدور في رأسي، فكيف نشرت الصحف نبأ الحريق دون أن تعرف به النيابة؟ وكيف استطاع مهندس أنيق فنان أن يبني قرية وسط رجال يعادون المشروع ويقاومونه؟

fb/mashro3pdf

قلت له:

– هل لنفوذ الأميرة صلة بإنشاء القرية؟

فأجاب:

– لا شك.

فعدت أسأله:

– إذن لماذا لا يستطيع نفوذ الأميرة أن يجبر أهل الجبل على الانتقال إلى القرية؟

– لا أدري.

وصمم صديقي على أن نبقى لنرى الأميرة.

وأحسست أنه يعاني من شعور مزمن بالوحدة، وأنه كوكيل نيابة يضطر إلى عدم مخالفة الناس، فيأتي إلى بهو الفندق ويجلس فيه وحيدًا متعاليًا في مظهره.. مسكينًا وحيدًا في داخل نفسه.. ويبحث عن متعة أو تسلية خفية لا يدركها أحد من الناس.. كأن يمتّع نفسه برؤية الأميرة في تلك الأيام القليلة التي تهبط فيها إلى الأقصر.

يجلس وينتظرها حتى تمر أمامه، فتنتهي سهرته، كأنه ذهب إلى سينما أو مسرح، ويعود إلى بيته وينام.

ومرت الأميرة فعلاً.. جرت أمامنا في لحظة خاطفة، وخلفها يجري ثلاثة شبان طوال لا شك أنهم أمريكيون تفضح جنسيتهم قمصانهم المشجرة، ومشيتهم السريعة، وجسمهم المتراخي، ونظراتهم القلقة البلهاء.

fb/mashro3pdf

وكان مرور الأميرة، لحظة مقدسة عند صديقي، فتجمد في جلسته وربما منع نفسه من التنفس، وكف قلبه عن الخفقان فقط تنهد بشدة، وأخذ نفسه بقوة بعد أن مرت.

ثم همس في غيظ مكبوت:

- ملقيتش غير الخواجات تصاحبهم، تفتكر ليه؟

- ليه؟

- علشان تقدر تعمل معاهم أي حاجة.. أما إحنا يا مصريين فلازم تظهر قدامنا أميرة.. وتعاملنا على إننا عبيد عندها.

ثم أمسك بيدي وصاح:

- ها هو المهندس الذي تسأل عنه.

ومر أمامي رجل شاحب طويل يتكلم مع شلة من رجال وسيدات بالفرنسية.. وكان صوته ناعمًا لينًا.. فيه ملل وسأم.. وكان يبدو عصبيًا رغم هدوئه الظاهري.

وكانت أول مرة أشاهد فيه الرجل الذي يشكوه "حسين علي" من أهالي الجرنة.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الثاني

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

فتحت عيني على منظر وكيل النيابة.. واقفًا "بالفانلة واللباس"، ممسكًا بكوب شاي يقدمه إليَّ وأنا راقد في السرير.

كان منظره مناقضًا تمامًا لمظهره، وهو جالس في بهو فندق "ونتر بالاس"، أو عندما يجلس على منصة الاتهام في المحكمة، وقد علق وشاحه الأحمر فوق صدره. ووضع الطربوش فوق رأسه، ينظر إلى المتهمين في تعالٍ وغطرسة وكبرياء.

كان مجردًا من مظاهره، ومسكنه مجرد أيضًا من كل شيء.. حجرة ليس فيها غير سرير "سفري" كسرير المستشفى، اتسع لنا بصعوبة، ومسمار مثبت في الحائط علّق عليه كل ملابسه المتسخة، ومقعد خشبي قاعدته مكسورة، لا يصلح للجلوس، فاستعمله كدولاب يضع فوقه ملابسه النظيفة المكوية.

وهناك حجرة أخرى خاوية كدست فيها كتب القانون، وملفات القضايا على الأرض المتربة، وفي أحد أركانها مائدة خشبية، فوقها وابور جاز، وصحون فيها بقايا طعام تعفن، ورباط عنق وقع على الأرض ونسيه في مكانه لعدة أيام.

أما المطبخ فمعتم، مليء "بالكراكيب".. وحلل وكتب وحقائب سفر، وسلم خشبي، وصناديق خشب، وزجاجات بيرة فارغة، و"طشت" وأشياء أخرى كثيرة، لم أتبينها في الأركان المعتمة، ولم تكن في المطبخ "لمبة" تضيئه.

fb/mashro3pdf

قمت من السرير، وارتديت حذائي في الحال، فلم يكن عنده "شبشب" أضعه في قدمي، أما هو فكان يتجول في مسكنه بقبقاب خشبي يطرقع على البلاط، معلنًا بصوته الرتيب احتجاجًا عاليًا على الحياة في هذا المسكن.

ولكن الاحتجاج الصادر من طرقة القبقاب، لم يكن ظاهرًا في نفس صديقي.. كان مستسلمًا في شبه تخدير يروح ويجيء، وكأنه يعيش حياة طبيعية.

وفاجأني بزجاجة كولونيا "أتكينسون" وبريانتين فاخر ورأيته يعتني بحلاقة ذقنه، ويسكب الكولونيا بغزارة على وجهه ويعطر بها منديله، واختار من فوق الكرسي الخشبي، بدلة فاخرة ارتداها وهو يقول لي إنها "صوف إنجليزي ممتاز ماركة دورمي"، ولمع حذاءه "الكنج" الذي اشتراه من القاهرة بخمسة جنيهات، وتحول فجأة إلى رجل أنيق، ووضع الطربوش فوق رأسه، فأصبح وقورًا، وتغيرت ملامح وجهه، كأنه لم يكن منذ دقائق يصنع الشاي فوق وابور الجاز وهو "بالفانلة واللباس".

وخرجنا إلى الشارع هو ووكيل نيابة الأقصر، الذي يعرفه كل الناس ويرهبونه، وأنا صديقه الذي أحتمي به لو حدث لي شيء هناك.. في الشاطئ الغربي، عندما أعبر النيل لأحقق في شكوى أهالي الجبل.. الأهالي الخطرين الذين يتحدون الحكومة.

وقال صديقي وهو يودعني:

– إذا لقيت أي صعوبة.. بلغ النيابة.. أنت مفتش تحقيقات في وزارة المعارف.. لا انت بوليس ولا نيابة.. بلاش تدوش دماغك

fb/mashro3pdf

إذا كانت الحكاية خطيرة بلغنا، وإذا كانت بسيطة اقفل المحضر بسرعة، وتعال نتغدى سويًا.

ورحبت بالفكرة، وودعته، وناديت الحنطور، وأمرت السائق أن يذهب بي إلى تفتيش الآثار.

كنت أحس بشيء من الغموض، على الرغم من الطمأنينة التي أدخلها صديقي في صدري، فهذه أول مرة في حياتي أقوم فيها بتحقيق بين أهالي قرية والحكومة.. والشكاوى التي حققت فيها من قبل.. كانت بين أفراد، بين مدرس وناظر مدرسة، بين ولي أمر تلميذة ومدرستها.. كان أفراد التحقيق محصورين دائمًا ومن السهل عليَّ استدعاؤهم والتفاهم معهم، لأن عقليتهم قريبة من عقليتي، وموضوع الشكوى يمس تصرفات معتادة أعرفها.

أما التحقيق بين قرية وحكومة، فهو شيء جديد تمامًا لم أعرفه من قبل.

ورأيت أن أبدأ أول خيط من خيوط التحقيق من تفتيش الآثار، ليدلني كبير المفتشين على طريقة الوصول إلى الشاطئ الغربي، وأسمع منه شيئًا عن أهل الجبل وقصة القرية النموذجية.. وأسأله أيضًا عن الاستراحة التي عجزت عن دخولها في الليلة الماضية.

وانتبهت فجأة من أفكاري، على منظر النيل، والشاطئ الغربي والجبل متوهجًا بضوء الشمس، وكان مركب كبير يسير في النيل، في مؤخرته ساقية خشبية تدفع الماء وراءها في شلال من الماء الأبيض، فيندفع المركب إلى الأمام.. ومراكب شراعية كبيرة وصغيرة، تتهادى في سكون، وشريط

fb/mashro3pdf

ضيق من الأرض الخضراء بحذاء الشاطئ الغربي، وأراحتني رؤية الأرض الخضراء، إنها أرض طيبة حنون، سمحت بها قسوة الجبل وخشونته ورمال الصحراء الممتدة إلى ما وراء الأفق.

ووصلت مبنى التفتيش، واقتحمته بشعور المحقق الذي اعتاد أن يدخل المدارس وإدارات الوزارة، فيثير القلق والرهبة وينتفض السعاة وقوفًا أمامه بمجرد أن يعرفوا شخصه، ويعامل من الموظفين – كبارًا وصغارًا – باهتمام وتملق وخوف.

ومضيت فورًا إلى حجرة كبير المفتشين.. فاعترض طريقي أحد السعاة، فلم أكترث له، ودخلت الحجرة فإذا بها خاوية.

ولم يُظهر الساعي اهتمامًا كبيرًا عندما عرف أني مفتش تحقيقات، وقال لي في هدوء أشبه بالبرود:

– حضرة المفتش مع سمو الأميرة.

قالها لي: وكأنه هو أيضًا مع سمو الأميرة، وفي حمايتها.. وأدركت في الحال، أن كل هيبتي قد تبخرت، فلا أحد في هذا المكان من كبير المفتشين إلى أصغر السعاة، سيهتم بمحقق مثلي، ولا حتى بوزير المعارف، ولا رئيس الوزراء نفسه، ما دامت هناك صلة بينهم وبين سمو الأميرة.

وجاءني أحد الكتبة، وروى لي في اعتداد، أن حضرة المفتش يشرح لسمو الأميرة آثار مدينة "هابو".

قلت في غيظ مكتوم:

– وأشوف حضرة المفتش إمتى؟

فابتسم وقال في خبث:

fb/mashro3pdf

– والله حسب ظروف سمو الأميرة، أصلها مغرمة بالآثار ويتطلب حضرة المفتش علشان يشرح لها كل حاجة.

فقلت له:

– يعني الشرح ده.. ح يستمر كتير؟

فهز رأسه قائلاً:

– معرفش.. يومين.. أسبوع.. سمو الأميرة هي اللي تحدد الوقت..

وزاد غيظي، وانهارت مقاومتي في نفس الوقت، لم يعد هناك مجال لأن أقوم بدور مفتش التحقيقات المهاب الخطير.. واضطررت لأن أشرح للكاتب ظروفي، إنه شيء ما كنت أقدم عليه لو وجدت كبير المفتشين، كنت تجاهلت هذا الكاتب واحتقرت شأنه، وافترضت أن عملي سري لا يصح أن يعلم به مثل هذا الموظف الصغير.

وقلت للكاتب:

– أنا عندي تحقيق في الجرنة.. إزاي أوصل لهناك؟

فقال الرجل ببساطة:

– حضرتك تاخد مركب وتعدي النيل.

كان يتكلم وكأنه يقول: "وأنا مالي".

وصحت في الرجل في انفعال:

– دا تحقيق خطير.. والنيابة مهتمة بيه.. أنا صديقي وكيل نيابة الأقصر كان لسه بيسألني عن التحقيق.

كنت أكذب وأتلقف أي شيء وأقول أي كلام، حتى أستعيد هيبتي..

والتفت الكاتب إلى الساعي وقال له:

fb/mashro3pdf

– شوف للبيه مركب توصله.

قالها وكأنه يقول.. خلصنا منه.

وخرجت وراء الساعي، ومشيت في الشارع وأنا أحس بمرارة وتعاسة.. وأن وظيفتي والتحقيق الذي أقوم به وكل شيء قد تضاءل وأصبح تافهًا أمام وجود الأميرة في الأقصر.

وتلقفني مركب شراعي؛ ركابه بعض القرويين يحملون سلالاً وصفائح مغطاة، وبينهم رجل في ملابس العمال يمسك آلات تصليح الطلمبات ومواسير المياه.. والمراكبي قد غطى رأسه بعمامة كبيرة وارتدى سروالاً له "تكة" من الحبل الغليظ.

كانت الفوضى على ظهر المركب قريبة من الفوضى في بيت صديقي وكيل النيابة.. الفارق الوحيد بينهما، أن هذه فوضى غير مستترة.. ظاهرة في عرض النيل، بينما الفوضى في بيت صديقي يقنِّعها صديقي بعطر الأتكنسون والصوف الإنجليزي والطربوش.

وصاح العامل وهو يخبط بكف يده على كماشة كبيرة في يده.. كان يتكلم مع المراكبي وكأنه يحدث في نفس الوقت جميع من في المركب:

– وين الأميرة دلوقيت يا محمدين؟

فأجاب الريس ضاحكًا:

– عندك هناك ها في البر الغربي؟

وعلا صوت العامل في انفعال قائلاً وهو يضحك:

– كل يوم يا بوي.. يجيبولها ضابط حليوة.. من العيال بتوع مصر و.. ع.. تبدلهم.

fb/mashro3pdf

- بيحرسها.
- تاخدنيش أنا أحرسها ليلة.. بذمتي لو حرستها ليلة ما تبدلني واصل.

وضحك المراكبي.. وضحكنا جميعًا.

وقال المراكبي:

- تروح فين إنت بخلجاتك المجطعة يا شحات. في الأكابر إحنا فُجرا يا بوي خلينا في حالنا.

فمط العامل رأسه ومد يديه وهو ممسك بالكماشة وقال:

- بذمتي يا رجالة.. تتلهط لهط .. خشمها.. عم بينجط عسل.. والّا بطنها يا بوي.. عم بيترجص زي العجين الخمران.

وشعرت براحة نفسية غامرة، وأنا أستمع لكلام العامل حطم الرجل بكلماته البسيطة المعبرة، تلك الرهبة التي شعرت بها عندما ران علينا الصمت، وهي تمر أمامنا في بهو فندق ونتر بالاس في الليلة الماضية. كما حطم الرجل تلك القداسة التي أحاطت بالأميرة، وهذا الجو من التعالي والكبرياء الذي ساد تفتيش الآثار لمجرد أن كبير المفتشين ذهب ليشرح لها آثار مدينة هابو.

كانت الأميرة هنا مجرد امرأة.. يروون عن ضباط حرسها القصص. وينظرون إليها كأنثى يشتهيها الرجال.. وهم الرجال الجديرون بها.

ووصلنا إلى الشاطئ الغربي، وهبطت إليه، وأنا أسأل المراكبي في حيرة:

fb/mashro3pdf

– القرية النموذجية فين؟

فقال المراكبي وهو يشير أمامه:

– لوري الآثارات عندك ها.

ولم ينتظر الرجل، وصاح ينادي على سائق لوري كبير مكتوب على جانبه "مصلحة الآثار".

وجاء السائق، فقال له المراكبي:

– وصّل الأفندي.. عندكم.

ولم يناقشني السائق، وأخذني معه، وأركبني في المقعد الأمامي، بينما انهمك في حديث طويل وهو واقف إلى جانب اللوري مع بعض القرويين.

وأخيرًا صعد ومعه رجلٍ واسع العينين، فيهما التهاب حاد، حاف القدمين، يلبس صديريًا مخططًا بخطوط زرقاء وسوداء وسروالا متسخًا، ومرة أخرى تذكرت صديقي وكيل النيابة وضحكت في نفسي، وأنا أتخيله "بالفانلة واللباس".

وحشراني بينهما.. وانطلق بنا اللوري إلى القرية النموذجية، وأنا أعجب كيف وصلت بي الحال إلى أن أذهب إلى تحقيق.. وأنا في هذا الوضع الغريب.. أركب لوري بين سائقه ورجل حافٍ القدمين.

وكان السائق يتحدث مع زميله عن "الست الخوجاية" ويبدو أنها طبيبة.. إذ كان الرجل المصاب بالتهاب في عينيه ذاهبًا إليها لتعالجه.

ولم أفهم شيئًا قاله الرجل بلهجة مريبة.. وهو يتحدث مع السائق.

fb/mashro3pdf

قال له فجأة:

– بذمتي ما أنا رايح للست "الخوجاية" دي.. زي اللي في بالك.. عمري ما عتّبت دارها يا شيخ في العتمة.

فقال له السائق:

– ما أنا عارف إنك رجل زين.

انتبهت فجأة إلى أنهما يتحدثان عن شيء مريب.. أن هذه الست "الخوجاية" لا تقوم بالتمريض فقط.. فهناك من يزورونها في العتمة.. لماذا؟

وانتظرت متوقعًا أن أسمع المزيد.. ولكنهما غرقا في صمت تام.

ومر اللوري بشريط حديدي ضيق، عليه بعض عربات نقل الحجارة والتروللي.

و لم أستطع منع نفسي من السؤال عن حادث قلب عربات التروللي وحريق القرية.. الذي قرأت عنه في الصحف وأنا في القاهرة، و لم يسمع به وكيل النيابة في الأقصر.

وسألت السائق:

– هما قلبوا التروللي إمتى؟

فأجاب الرجل الذي على يميني:

– جلبوه من غيظهم من المهندس يا أفندي.

قالها وكأنه يرحب بما حدث.

fb/mashro3pdf

وسألته:

– والبوليس عمل إيه؟

فقال الرجل دون أن يستريب في أسئلتي:

– ولا حاجة.. جلبوه في العتمة.. وحرجوا الشونة في العتمة.

وسألته مستفسرًا:

– حرقوا الشونة، والا القرية كلها؟

فضحك الرجل وقال:

– حرقوا جدار الشونة.. وطفوا الحريقة جبل ما نشعلها.

كان اللوري ينطلق بنا بين حشائش خضراء ممتدة من حولنا، وكانت تبدو من الشاطئ الآخر على شكل شريط ضيق وقام وسط الحشائش تمثالان فرعونيان ضخمان ينظران إلى الشرق في سكون عميق، وعن بعد ظهرت أطلال مدينة فرعونية بمعابدها وأعمدتها وبواباتها الصخرية.. ثم ظهرت قرية سمراء مبنية من الطين النيئ.

واحتشد بعض العمال أمام إحدى الدور تخرج منها ضوضاء "موتور" وكان في داخل الدار مصنع ووقف اللوري فجأة وسألني السائق:

– أنت رايح للأفندي المعاون؟

فقلت له:

– لأ.. أنا عايز حضرة المهندس.

ونظر السائق إليَّ في دهشة.. كان مثلي لا يصح أن يقابل المهندس، وأشار إلى إحدى الدور.. لها سور عال من الطين وقال:

– المهندس.. في الدار دي.

***

fb/mashro3pdf

ودخلت دار المهندس.. فرأيت شجرة كبيرة مزروعة وسط حوض، وسمعت صياحًا حادًا لصوت امرأة تتكلم بالفرنسية، وكان الصوت صادرًا من أحد الأبواب المفتوحة المطلة على الحوش.

وذهبت إلى مصدر الصياح، وعند مدخل حجرة صغيرة، رأيت امرأة أعرابية تضع عمامة زرقاء فوق رأسها، وجمعت شعرها الأشقر كله تحت العمامة، وترتدي عباءة من الصوف الخشن، ووقفت فوق كرسي وسط الحجرة، وفي يدها لمبة كهربائية تلوّح بها في عصبية وتقول:

- أنتم تريدون الخراب لهؤلاء المساكين.. تريدون طحنهم والقضاء عليهم.

حيرني منظر المرأة.. إنها فرنسية في ملابس الأعراب الذين نراهم في الأفلام الأمريكية الملونة.

ولمحت المهندس في منظر غريب، كان يرتدي عباءة صوفية خضراء فوق قميص وبنطلون، ويضع على رأسه "بيريه" بني اللون، ويقف وسط الحجرة مواجهًا الثائرة باللغة الفرنسية، وهو صامت كتمثال درس الفنان الذي صنعه، وقفته بدقة وعناية شديدتين.

واستمرت المرأة تصرخ بالفرنسية:

- أنتم همج.. وحوش.. يجب أن تأمر بإزالة موتور الكهرباء الذي جئتم به هذا الصباح، سأحطم لكم الأسلاك، سأنسف الموتور.. سأقاوم هذه البشاعة التي جئتم بها إلى هذا المكان.

وألقت المرأة باللمبة الممسكة بها، ولحسن الحظ لم تتحطم، ولكني سمعت صوت صرخة نسائية ضعيفة.

fb/mashro3pdf

وتقدمت خطوة، بعد أن كنت قد تراجعت خطوات وتواريت عن فتحة الباب، وأنا أرى المرأة تقذف باللمبة على الأرض.

ورأيت الحجرة الضيقة تتسع لسيدتين أخريين بلغتا مرحلة الكهولة، لا تقل سنهما عن الستين وربما السبعين، وكان واضحًا أنهما أجنبيتان.

وخرج المهندس من هدوئه، وتكلم دون أن يغير وقفته الفنية، وقال كلمات ثائرة بصوت هادئ يطغى عليه الملل والسأم، قال بالفرنسية:

– سيدتي.. إن أعصابي لا تحتمل كل هذا.. إن ما تفعلينه لا يليق.. آه يا ربي كم أعاني في هذه المهمة اللعينة التي أقوم بها.

وهبطت المرأة "الأعرابية الفرنسية" من فوق الكرسي الذي تقف عليه.. وصاحت:

– لقد أنذرتك.

واقتحمت باب الحجرة خارجة منه، وعباءتها تشغل حيزًا كبيرًا من الفضاء حولها، ومستني بعباءتها ومضت إلى خارج الدار تتمتم في غيظ، واختفت عن الأنظار.

ورآني المهندس، نظر إليَّ طويلاً، ثم حوَّل بصره عني، والتفت إلى السيدتين العجوزين، وقال لهما بالفرنسية:

– آسف لما سببته لكما هذه السيدة من انزعاج.. إنها تكرهنا.. ولا تحتمل وجودنا هنا.

والتفت فجأة وراءه، فلما رآني واقفًا ظهر عليه التردد والقلق.

وتقدمت داخل الحجرة وقلت له:

fb/mashro3pdf

– أنا مفتش تحقيقات بوزارة المعارف، وفيه موضوع خاص بالقرية عايز أتكلم معاك فيه.

ونظر إليَّ المهندس في يأس قائلاً:

– كل المتاعب يا ربي في يوم واحد.

والتفت إلى السيدتين العجوزين وكانتا تتأملاني في فضول، وقال لهما بالفرنسية:

– أقدم لكما حضرته.. موظف بالوزارة.

ثم التفت إليَّ وقدمهما إليَّ قائلاً بالفرنسية:

– مدام "..." والمدموازيل ابنتها، جاءتا أخيرًا من الصين، إنهما فنانتان كبيرتان.. أرجو أن تجلس معهما حتى انتهي من مشكلة "الموتور".

وأحنى رأسه في أدب جم وانصرف خارجًا وكأنه لم يسمع أني مفتش تحقيقات، وأني جئت من أجل تحقيق.

وضايقني أني لا أعرف بالضبط أي السيدتين العجوزين هي الأم، وأيهما هي البنت.. الاثنتان بلغتا سنًا لا فرق فيها بينهما، وبدأت أواجه احتمال أن إحداهما قد جاوزت المائة عام، فإذا كانت الابنة في الثمانين، فلابد أن تكون الأم قد جاوزت المائة.

وقالت لي إحدى العجوزين في هدوء:

– أيها الشاب.. هيا بنا نخرج إلى الحوش، ونجلس هناك تحت الشجرة.

fb/mashro3pdf

ومدت لي يدها لأساعدها على النهوض، ومدت لي الأخرى يدها أيضًا وأمسكت باليد الثانية كراسة و "ألبوم" صور، وسارتا في نشاط يناسب سنهما، وجلسنا ثلاثتنا على "دكة" خشبية تحت الشجرة.

كانت جلسة عائلية، لا صلة لها بالتحقيق الذي جئت من أجله، وقررت بيني وبين نفسي أن أعامل واحدة منهما على أنها الأم.. و"المدام" لأنها كانت تلبس فستانًا أسود، وأقصر قامة من الأخرى التي تلبس فستانًا رماديًا فيه بقع سوداء كبيرة، وجسمها مترهل بالسمنة.. أقنعت نفسي بأن الأم هي التي تلبس الفستان الأسود.. والمدموازيل هي التي تلبس الفستان الرمادي.

وسألتني الأم:

- أنت فنان أيها الشاب.

ووجدت أنه من قلة الذوق أن أخبرها بأني جئت في تحقيق وأن هناك بعض الاتهامات الموجهة إلى القرية.

فأجبتها:

- نعم.

- وصديق للمهندس.

فهززت رأسي قائلاً:

- هذه هي أول مرة أتعرف فيها عليه.

فهزت هي الأخرى رأسها وقالت:

- إنه فنان عظيم. انظر إلى هذا البيت. هل رأيت سقوف الحجرات على شكل قباب.. هل رأيت النوافذ.. انظر إلى هذه الحديقة داخل

fb/mashro3pdf

السور الكبير، إنك لا تجدها في أي مكان آخر في العالم.. إنها مصرية أصيلة.

– يجب أن تعيشوا جميعًا أيها المصريون في بيوت مثل هذا البيت.. أنتم تخطئون كثيرًا بتقليدنا.

وتدخلت المرأة ذات الفستان الرمادي قائلة:

– ماما.

وتنهدت في ارتياح.. فقد تأكدت من صدق تخميني.. واستأنفت الابنة التي في الثمانين من عمرها تقول:

– ولكنهم يفسدون الطبيعة.. ربما تصلح هذه المباني للمدن كالقاهرة والإسكندرية. أفضل أن يعيش الأهالي في كهوفهم في الجبل.. حتى لا تفسدهم المدينة كما أفسدتنا.. كان الأفضل إنشاء هذه القرية النموذجية في القاهرة.

وهزت الأم رأسها عدة مرات.. و لم تقل شيئًا.. غرقت في بحر من التأمل العميق.

كانتا تتحدثان في حسرة، و لم أعرف ماذا أقول لهما؟ تخيلت القاهرة.. وكلها مبانٍ من الطين النيئ، ثم ريف مصر كله، والفلاحين يعيشون على الطبيعة.. طبيعة الأرض والصحراء وكهوف الجبال التي تحف بالحقول.. وعجبت كيف يفكر مخلوق في أن الحياة على هذا النحو تكون حياة سعيدة!

fb/mashro3pdf

وتورطت في المناقشة فقلت لهما:

- كيف يكون الناس سعداء.. وهم يعيشون كالحيوانات في كهوف الجبل؟

فظلتا تتأملاني لفترة طويلة.. وتبادلنا النظرات ثم قالت الأم في استنكار:

- لقد فسدت عقليتكم في الشرق.. حتى في الصين سمعتهم يرددون هذا الكلام.. أنتم تريدون تحويل كل شيء إلى باريس.. لا المدن الكبيرة فقط، ولكن كل قرية كل كوخ تحلمون بأنه لابد أن يصبح كباريس يومًا ما.. تدخله الكهرباء، والكباريهات، والكتب والأفكار والانهيار الخلقي.. وانعدام الوزن.. وضياع الفن.. لقد فررنا يا بني من باريس لأنه لم يعد فيها فن، وتجولنا في الشرق نبحث عن مأوى نلجأ إليه، ولكن باريس تلاحقنا في كل مكان.. باريس تلاحقنا في كل مكان.. باريس التي ماتت مع "رودان".

وأردت أن أظهر لها معرفتي بالفن.. فقلت:

- رودان كان مثَّالاً عظيمًا.

فقالت ببساطة:

- لا أحد ينكر هذا.. إنه بيتهوفن الموسيقي.. شكسبير الأدب.. كان عشيقي.. هذه هي ابنتي منه.

وتجمدت في مقعدي.. إن "رودان" من عظماء القرن التاسع عشر، لابد أنها عجوز جدًا.. هل بلغت المائة والخمسين، غير معقول أن أسمع من امرأة في مثل هذه السن أنها كانت عشيقة، غير معقول أن أواجه

fb/mashro3pdf

عشيقة بيتهوفن أو "رودان" أحسست بجو خرافي يحيط بي.

وانتابني قلق مفاجئ.. متى أنتهي من هذا التحقيق؟

من المستحيل أن ألحق الآن بصديقي وكيل النيابة في موعد الغداء.. وملابسي كلها عنده.. والمهندس قد اختفى وامرأة غريبة تهدد بنسف موتور الكهرباء.. وعجوز تقول أنها عشيقة "رودان".. وأنا جالس على "دكة" تحت شجرة في حوش.. كيف أتصرف.. إني لا أستطيع أن أتنبأ بما سيحدث أو بما سأرى أو أسمع في اللحظة القادمة.

وأمسكت الابنة بكراستها، وقدمتها لي لأتفرج على ما فيها من رسوم، وهي تقول:

– هذه صور قديمة أخذتها منذ زمن بعيد.

وتصفحت الكراسة.. رأيت وجوه صينيين وهنود.. وفجأة، هتفت:

– هذا تشرشل!

فابتسمت قائلة:

– كان في الثلاثين من عمره عندما جلس أمامي لأرسم له هذه الصورة.

قلت لها:

– ولكن ملامحه هي.. هي.

فضحكت قائلة:

– إنه.. بولدج.

وتقدم منا سفرجي في ملابسه البيضاء الأليفة.. وحول وسطه حزام أحمر.. كأننا في ونتر بالاس وقال وهو ينحني في أدب:

fb/mashro3pdf

– حضرة المهندس.. بيقول لحضرتك تحب تتفرج على القرية؟

ورحبت على الفور، واستأذنت من السيدتين، وتبعته إلى الخارج، حيث وجدنا المهندس يقف بعباءته الخضراء، وسط العمال، أمام المبنى الذي يحتوي على "موتور" الكهرباء.

كان المهندس يصدر أوامره بتشديد الحراسة، فالهجوم محتمل ومتوقع بعد إنذار المرأة الأعرابية، والعمال يريدون العودة في أسرع وقت إلى الأقصر، لأن أحدًا منهم لا يرضى البقاء ليلاً في القرية.

وصاح المهندس في كلمات شجاعة بنفس الصوت الغارق في الملل:

– أنا ح أنام الليلة في القرية.. وفيه ستات عواجيز ح يباتوا هنا. محدش خايف من حاجة.. المهم إن الحراسة تكون كويسة.

وعاودني الشعور بالخطر الذي أحسست به في القاهرة عندما كلفني مدير التحقيقات بهذا التحقيق.. وكان الخطر واضحًا، فقد سمعت بأذني المرأة وهي تهدد بنسف الموتور.

والجديد في الأمر أني كنت أتوقع الخطر من أهالي الجبل، ولم يدر بذهني أن هناك امرأة تلبس عمامة وتتكلم الفرنسية التي تنم عن أصلها الفرنسي.. هي التي ستكون مصدر الخطر.

وجاءني المهندس وأخذني من يدي.. ومضى بي يشق طريقه بين المباني.

سألته:

– مين الست اللي كانت ثايرة ضد الكهربا والموتور؟

فأجاب في عصبية:

fb/mashro3pdf

- ست فرنساوية عايشة هنا في الجبل.. وبتعمل صلات مع أهل الجبل.. بتعالجهم.

فقاطعته وقد تذكرت الرجل المصاب بالتهاب في عينيه:

- طبيبة عيون.

- أبدًا.. دي هاربة من فرنسا.. مش عايزة تعيش وسط المدينة.. وبتقول إنها بتحب الناس البدائيين، وعايزاهم يفضلوا بدائيين.. علشان ما يتلوثوش بالفساد.. بتعلم نسوان الجبل التطريز لأنهم شاطرين وهما اللي عملولها العباية بتاعتها وقدموها هدية لها.

- وتفتكر هي اللي ورا الحريقة وقلب الترولي؟

- هي ضد المشروع كله. ما أقدرش أتهمها بحاجة، معنديش دليل ضدها.

وأقبلنا على ساحة كبيرة وسط المباني.. فسكت المهندس وكأنه يتهيأ نفسيًا لتغير موضوع الحديث.

ثم قال:

- هنا ساحة القرية.. تجد فيها الجامع والمدرسة ودار العمدة.

وأشار بيده:

- وهناك السوق.. والخان.

وقاطعته متسائلاً:

- قصدك إيه.. بالخان؟

فنظر إليَّ في كبرياء وقال:

fb/mashro3pdf

- إحنا في الشرق.. منعرفش اللوكاندات.. إنما نعرف الخان اللي بينزل فيه التجار أثناء السفر. وأنا شخصيًا أحب كلمة خان، وأفضلها على كلمة لوكاندة.

وصمت فجأة.. وسرح ببصره إلى الأفق.. ثم أمسك بيدي في انفعال وهتف:

- أوه.. يا ربي.. أو.. لا لا.. شوف البنت اللي ماشية هناك بتعمل صورة جميلة على جدار الجامع.. بس يا خسارة كان لازم تلبس فستان برتقالي علشان الألوان تنسجم مع بعض.

وكانت فتاة حافية تلبس "ملس" الفلاحات الأسود، تسير عن بعد و لم أفهم ماذا يعنيه المهندس بكلامه عن الألوان.. ففضلت السكوت.

وأمضينا ثلاث ساعات، نتجول في القرية..

ودخلنا دار العمدة، وشاهدت حجرة مكتبه، وحمامه الخاص والتواليت الأفرنجي ذا السيفون، وحجرات نوم الضيوف.

كانت دارًا فخمة، لا أظن أن أي عمدة يحلم بأجمل منها.

وفي الجامع، شرح لي المهندس مساقط الضوء وكيف تنسجم مع خطوط البناء، وحركات المصلين.. كأنهم لن يصلّوا بل سيرقصون "باليه" على مسرح حديث الإضاءة.

وفي المدرسة، وقف المهندس أمام بناء صغير، وقال لي بالفرنسية:

- هذه.. هي الكنيسة.. ثم استدرك قائلاً:

- أقصد الجامع.

fb/mashro3pdf

وفتح يديه في الهواء، فانفرجت عباءته، وأصبح له كيان ضخم، وقال في تأثر:

- وجود هذا البناء يثير الرهبة في نفس الطالب.. كل المدارس الإنجليزية، لابد أن تكون فيها كنيسة.. وفي مكان بارز.. علشان تكون رمزًا للتلاميذ.

وكنت أفكر في التطور الخطير الذي سيحدث في حياة أهل الجبل، ونحن نشاهد إحدى الدور المقامة لهم.

وسألت المهندس:

- لاحظت حاجة في البيت ده؟

فأجبته:

- لاحظت أنه بيت جميل.

فهز رأسه وقال:

- ده.. مكيف بالهواء البارد والساخن.

و لم أصدقه.. ولكنه أشار إلى الجدران وقال:

- الجدران دي سميكة، تحفظ الحرارة داخل البيت في الشتاء.. وتحفظ الرطوبة في الصيف.. وكمان القبة اللي في سقف الحجرة تساعد على تكييف الهواء، لأنها بتعكس أشعة الشمس.. القبة دي بيستعملوها الأهالي في أسوان، لكن ما يعرفوهاش هنا ولا فيش مهندس في الدنيا يقدر يبني القبة بالطريقة دي.. لكن أهالي أسوان تحدوا المهندسين، وعرفوا يبنوها.. علشان كده جبت عمال مخصوصين من أسوان وعملوا سقوف القرية كلها بالقبب.

fb/mashro3pdf

ومررنا بحظيرة كبيرة للمواشي والدواب. يجمع فيها الأهالي حيواناتهم ليلاً، حتى لا تنام معهم في نفس المكان الذي يرقدون فيه.

وقال المهندس مشيرًا إلى الحظيرة:

- دا الجاراج بتاع القرية.. كل واحد يسوق في آخر الليل حمارته أو جاموسته للجاراج ويسيبها، ويروح ينام في بيته النضيف.

وكنت ألهث من التعب والجوع، بعد أن فرغنا من جولتنا، والمهندس يزداد نشاطًا وحيوية كلما مر بإحدى المنشآت التي صممها وأشرف على بنائها.. وكان يشعر بالفخر والزهو، لأنه استطاع أن يبني مدينة.. ولأنه سيغير حياة ناس بدائيين بأبنيته التي أقامها.

وعدنا إلى بيت المهندس، وجلسنا حول مائدة أنيقة وتناولنا الطعام مع السيدتين العجوزين، ولم يكف المهندس عن حديثه عن القرية، وكيف أثارت اهتمام مجلات الهندسة والفنون في العالم كله.. كان يقول في حسرة:

- إنهم يتحدثون عني في العالم.. ولا أحد يهتم بمشروعي في مصر. ماذا أصنع يا ربي. لو اهتموا بمشروعي لتحولت مصر في عشر سنوات إلى جنة.

ولما فرغنا من الغداء، كان همي الأول هو أن أتحدث مع المهندس عن مهمتي.. لم أكن أريد منه أكثر من أن يرسل معي رجلاً من رجاله إلى أهل الجبل، لأسأل عن "حسين علي" مقدم الشكوى وأبدأ التحقيق بسؤاله.

fb/mashro3pdf

وما كاد المهندس يسمع عن رغبتي، حتى انتفض قائلاً:

- مستحيل يا عزيزي أبعت معاك واحد من هنا.. بمجرد ما يشوفوك مع واحد من رجالتنا، حياتك تبقى معرضة للخطر.

فقلت له:

- لازم أروح هناك.
- روح بنفسك.. أضمن لحياتك.
- أروح إزاي؟

فكر طويلاً ثم قال في صوت خفيض:

- صحيح.. المسافة طويلة، وأنت محتاج لعربية.. لكنهم عارفين عربياتنا، أنصحك تروح في عربية تابعة لمصلحة الآثار.. على كل حال إحنا العصر.. استنى هنا لبكره الصبح ونشوف طريقة وتروح بيها.

وانزعجت لفكرة البقاء.. وتذكرت ملابسي التي نسيتها عند صديقي وكيل النيابة، فاحتججت بأني بغير ملابسي، وأنني أريد أن أعود إلى الأقصر.

فنادى المهندس على "السفرجي"، وأمره بإعداد اللوري لينقلني إلى الشاطئ.

وفوجئت بالسفرجي يقول:

- اللوري متعطل يا سعادة البيه.

fb/mashro3pdf

وصاح المهندس:

– برافو.. عظيم.. إذن تبات الليلة معانا.. ونلعب شطرنج مع بعض.

وشعرت بغُصة في حلقي.. وبلعت ريقي لأستجمع شجاعتي.. كنت أعرف أن القرية معرضة للهجوم في هذه الليلة.. الهجوم الذي توعدت به المرأة الفرنسية.

ولم أستطع الكلام.. خفت أن يفضح صوتي ما أحس به من خوف وفزع.

وبعد لحظات كنت أجلس مع المهندس وأمامنا رقعة شطرنج وفي أثناء اللعب، روى لي المهندس أغرب قصة سمعتها في حياتي عن أهل الجبل..

كان يرويها ونحن ننتظر الهجوم الليلي.

fb/mashro3pdf

الفصل الثالث

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كنت أستمع إلى المهندس بشغف كبير وهو يروي لي عن معاركه مع عمدة الجبل، وينقل في نفس الوقت قطع الشطرنج على الرقعة بيننا.

ونقل المهندس وزيره وقال لي بصوت مليء بالتحدي:

– كش ملك.

وغاظني صوته، ودفعني الغيظ إلى إحساس مفاجئ بأن أتشكك في حقيقة ما يقول لي.. تغلبت على طبيعة المحقق الذي يستريب في كل ما يرى ويسمع، ولكني لم أفصح له عن التحول المفاجئ الذي شعرت به نحوه.. تركته يسترسل في قصته، وأنا أستمع إليها.. لا على أنها حقيقة.. ولكن مجرد وجهة نظر.. رواية يرويها خصم عن أعدائه.

وأكمل المهندس قصته في إسهاب.. كان يرويها بتفاصيل دقيقة، كأنه يروي فيلمًا شاهده أو يلخص لي رواية قرأها.. كان يحكي دون أن يخطر بباله أني أشك في أن خياله يشطح، وأنه ربما كان من هواة تأليف القصص.

***

كانت المعركة بين المهندس وعمدة أهل الجبل مريرة طويلة، وقف الخصمان فيها يناضلان في غير يأس.. أحدهما تعلم الفن في فرنسا ويتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة، والثاني رجل عجوز ماكر، يحارب بالفطرة والحكمة التي ورثها عن أجداده الذين لم يغادروا الجبل أبدًا.

fb/mashro3pdf

وانتصر المهندس فاستطاع بناء القرية النموذجية، ضد مقاومة أهل الجبل، وأعجب ما في انتصار المهندس، هو أن الذين بنوْا القرية النموذجية هم أهل الجبل أنفسهم.

وانتصر عمدة الجبل، لأنه قاد الأهالي في حركة مقاومة ضد النزول من الجبل إلى القرية، وترك القرية مهجورة، يسكنها خفراء وحراس، والمهندس وضيوفه الخائفون، وبقية الدور خاوية تقيم فيها الأشباح، الجامع بغير مصلين، والمدرسة بغير تلاميذ، ودار العمدية بلا عمدة.

وأعجب ما في انتصار العمدة، أنه ترك أهل الجبل يعملون في بناء القرية ليحصلوا على يوميتهم من القروش القليلة آخر النهار.. حتى إذا فرغوا من بناء القرية، وأخذوا نقود البناء رفضوا السكنى فيها.

ودامت المعركة بين المهندس والعمدة لسنوات. المهندس يستنجد بالبوليس.. ويبلغه كل ليلة عن حادث ارتكبه أهل الجبل ضد السياح.

ويروي المهندس للبوليس كيف أن سمعة البلاد ضاعت بسبب أعمال النصب التي يرتكبها أهل الجبل، وكيف أن إزاحة هؤلاء الأهالي من مكانهم، يتوقف عليها مستقبل البلاد، وسمعتها الدولية.

إن المهندس يسمع عن ضجة تقوم في "ونتر بالاس" بين يوم وآخر عندما يعود رجل محترم، سفير أجنبي، أو سائح أمريكي مليونير إلى الفندق، ويختلي بأحد علماء الآثار في ركن قصي، ثم يقول له هامسًا:

– عندي لك مفاجأة مدهشة.

ويتلفت السائح المليونير حوله، ثم يهمس في أذن عالم الآثار..

fb/mashro3pdf

- اليوم وأنا أشاهد الآثار تقدم مني أحد الأهالي وأبرز لي من جيبه خفية تمثالاً فرعونيًا حقيقيًا.. إنهم يسرقون الآثار بمنتهى البساطة.. وساومت الرجل.. حتى استطعت أن أشتريه منه بثمن رخيص جدًا.

ويسأل عالم الآثار:

- بكم اشتريته؟

فيجيب الرجل:

- دفعت فيه مائتي دولار.. تصور؟ أثر فرعوني مصنوع منذ آلاف السنين ثمنه مائتا دولار فقط.. إن متحف المتروبوليتان في نيويورك يشتريه مني بربع مليون دولار.

ويطلب العالم الأثري رؤية التمثال، ويتلفت السائح من جديد، ويخرجه من جيبه في حذر شديد.

وسرعان ما يصفر وجهه، وهو يسمع عالم الآثار، يقول له في سخرية ممزوجة بالشفقة: إن التمثال مقلد، وإنه من صناعة أهل الجبل.. يصنعونه بالعشرات في اليوم الواحد.. ويثور السائح.. ويزأر كالضحية المجروحة، ولكنه يتكتم في النهاية الفضيحة التي لحقت به.. فقد هزأ أحد الأهالي البسطاء بذكائه وثقافته، وأخذ منه ثروة لا يستطيع أن يطالب بها أمام البوليس.

أما المهندس فكان لا يتكتم الفضيحة، ويبلغها للبوليس، ويكتب التقارير عنها للمسئولين، متوعدًا ومهددًا سمعة البلد بالضياع.

fb/mashro3pdf

وفي الجبل يجلس العمدة ورجاله، يتندرون بغضب المهندس وبما حصلوا عليه من مال من السياح، ولكنهم لا يفكرون أبدًا في إقامة مسكن غير الكهوف التي يرقدون فيها.. لا كوخ، ولا "خص" ولا عشة، أو بيت من الطين.. إن الكهوف هي المداخل الطبيعية للقبور الفرعونية التي لم تكتشف بعد.. وكل أسرة لا تفكر في أنها تسكن في كهف بل هي تقيم على باب كنز.. على باب الجنة.

وعندما يتقدم الليل، تجتمع الأسرة، رجالاً ونساء وأطفالاً لينقبوا داخل الكهف، يكْحتون شهورًا وسنينًا بمعاولهم البدائية، ضاربين في الصخر الصلد، مغامرين بحياتهم، متحدِّين الطبيعة في صورة الحجارة الضخمة التي تقف بينهم وبين ما يريدون.. متحدِّين لعنة الفراعنة التي يفسرون بها قتلاهم الذين يموتون تحت الحجارة التي تسقط فوقهم أثناء الكحت متحدِّين مكر الفراعنة ودهاءهم في حماية قبورهم.. بئر بلا قرار، أو هاوية سحيقة تنشق فجأة أمام من يضرب الصخر، أو أرض زلقة تنحدر إلى جب سحيق، أو سقف ينهار على كل من يحاول اقتحام المقبرة.

إنهم متمسكون بمكانهم، يرفضون تحسين حياتهم عن أي طريق.. لأن أحلامهم كبيرة، إنهم يحلمون بالذهب الكثير، لا بالقليل الذي يرضى به الناس العاديون، أصحاب الأحلام العادية.

وكلما أحس العمدة باليأس يدخل في نفوس الرجال، ابتكر وسيلة لإبقائهم في الجبل، حتى لا يهجرونه.

وهناك أكثر من سبب يدفع الرجال إلى هجرة الجبل.. عندما يكحتون.. ويكحتون.. لسنين طويلة، دون أن يجدوا شيئًا.

fb/mashro3pdf

عندئذ يرتفع صوت أحد الرجال البائسين:

- دهب المساخيط مرصود.. ماحوالهش إلا الموت، وتحطيع الإيدين.. مكتوب علينا الفجر يا رجالة، مالناش منه خلاص.

وفي صباح يوم، تستيقظ أسرة هذا الرجل اليائس فتجده قد اختفى. يسافر الرجل ماشيًا على قدميه، أو راكبًا في مركب نيلي إلى الشمال، حتى يستقر في مدينة، ويعمل في بناء البيوت والعمارات.. ويتزوج الرجل امرأة أخرى، وينسى أهل الجبل وينسى زوجته الأولى وأولاده منها إلى الأبد.

ويقاوم العمدة هذا اليأس، بين وقت وآخر، فيجمع أهل الجبل ويقول لهم:

- مفيش ليلة يا رجالة.. خطف فيها نوم، إلا وأشوف المنام بعينيه، خدني الشيخ في دراعه، وطلع في الجبل وعدينا في العتمة، والشيخ بيحط في وداني كلام زي العسل يا رجالة ولمس بإيده الجبل.. وانفتح جصادي نور.. وشفت الكنز دهب في جدور.. وجدور على صواني.. وصواني عليها أكل.. وشفت يا رجالة.. نسوان ع الحيط.. وبط.. وغوازي.. وجيت أمد إيدي.. زعج الشيخ.. وجال.. وزّعه ع الرجالة.

ويلتهب حماس القبيلة وهم يسمعون منام عمدتهم العجوز ويبدو لهم الكنز قريب المنال، ما هي إلا ضربة أو ضربتان بالفأس في المكان الذي أشار إليه الشيخ، وتنفتح طاقة الكنز.

fb/mashro3pdf

وتستعيد النفوس التي أصابها اليأس تماسكها.. والذين يفكرون في الهجرة يعدلون عن قرارهم، والذين هجروا الجبل فعلاً، وذهبوا للعمل في المباني في المدن القريبة والبعيدة، وجاءوا لزيارة أهلهم لفترة من الوقت، يسمعون كلام العمدة، فيمدون فترة إقامتهم، وتجتمع النساء لتتشاور في مصير الكنز بعد أن يحصلوا عليه.

- ح نشتري بيت على الشط.. وفدانين نزرعهم ونعيش عيشة الأشراف.

وتقول ثانية:

- ح ناكل اللحم، ونلبس الحرير، وننسلوا عيال شداد.

وتقول ثالثة:

- أخويا كيفه أروح معاه سيوط.. أخدم على مرته.. دلوقيت بيجي معاها ياخذ نصيبه م الكنز.

وتتنهد امرأة عجوز وتقول:

- اللي يجصدك يا رب ما يخبش.

ويسري الكلام في دماء أهل الجبل ويختلط بأنفاسهم ولحمهم وعظامهم، ويتحول منام العمدة إلى يقين جارف.

وفي فجر يوم، وقد فرغ عمدة القبيلة من صلاة الفجر.. يأتي إليه أحد الرجال لاهثًا، ويقول له:

- لجينا الكنز.. الفأس بترن.

وينهض العمدة من قعاده.. ويردد في انفعال:

- لجيتو الكنز.. الفأس بترن؟

fb/mashro3pdf

فيخبره الرجل بما حدث..

- جعدنا ندج.. وندج.. والحجر ما يلين.. ندج وندج ترد الفأس في إيدينا.. لما بطلنا والرجالة همدت.. وآدي عاشر ليلة وشج الفجر. وإحنا واجفين جصاد بعض ما ينسمعش لنا نطج.. جامت الرجالة تصلي.. وأنا خدت الفأس، وجعدت أضرب بيها.. ملت بالفأس جيمة شبرين ودجيت.. لجيت الفأس بترن.. ودجيت.. لجيت الفاس بترن.. أنا اتجنيت.

فيمسح العمدة على وجهه ويقول في إشراق:

- دا الكنز يا راجل.

ويجمع العمدة أهل الجبل ويحدثهم:

- أنا عندي كلام لكم وأنتم كده جمعية.. من يوم ربنا مانشأنا هنا.. وإحنا مستنظرين.. ماحناش مستنظرين مطر.. ماحناش مستنظرين زرع.. مستنظرين الحجر ينفتح.. والمخبي يبان.. وكل ما تطلع علينا سمس.. بتكتر عيالنا.. وتجل اللجمة في إيدينا.. ويعصى الحجر ماينفتحش.

وترتفع صيحات الرجال والنساء:

- أيوه والله يا عمدة.

ويستأنف العمدة كلامه.

- الفجر اليوم.. رنت الفاس في الصخر.. وظهر الكنز وجصدي م الجمعية دي.. نتّفج.. تتصافى الجلوب.. ما بناش صغير ولا كبير..

fb/mashro3pdf

اليوم يا رجالة كمثل يوم الحساب لا عركة تجرى ولا طمع يعمينا.. الكل ياخد.. والكنز يتوزع بعدل الله.

وتصيح امرأة:

- غرضي في خلخال يا عمدة.

وتصيح أخرى:

- وأنا غرضي في كردان.

فيرتفع صوت العمدة فوق أصواتهم:

- الكنز يتوزع بعدل الله.. النهار طلع.. والسياح زمانهم جايين.. الليلة الجاية بعد العشا.. تتجمع الرجالة.. والنسوان يلموا عيالهم.. ونتمموا الكحت بإذن الله.

ويقضي أهل الجبل نهارهم، مع السياح وعلماء الآثار، وهم يكتمون انفعالهم الشديد، حتى إذا هبط الليل، وعاد الغرباء إلى الشاطئ الشرقي؛ هجموا بمعاولهم يضربون الجبل ضربات محمومة.. وهم مطمئنون تمامًا إلى أن أحدًا لا يعرف سرهم.

ويصرخ أحد الرجال فجأة:

- الحجر ح يجع.

- فيتراجع بقية الرجال.. ويتقدم واحد منهم يضرب بمعوله الضربة الأخيرة.. ويقع الحجر.. ويثور الغبار، وتهرول النساء الواقفات عند مدخل الكهف إلى الداخل ليشهدن فتح الكنز.

fb/mashro3pdf

ويرتفع صوت العمدة:

– فتحو عنيكو يا نسوان.. البير بان، ويلقى بحجر صغير في هوة سحيقة.. فلا يسمع للحجر صوت.. إنه بئر بلا قرار.

ويأمر العمدة:

– جربوا النور.

ويدخل الرجال تتقدمهم مصابيح الغاز إلى داخل المقبرة، وهم يسيرون في حذر شديد بحذاء البئر.. يتحسسون خطواتهم شبرًا شبرًا.

ويردد أحد الكهول ممن لا يستطيعون التقدم:

– نصيبي.. نصيبي يا رجالة.

ويصيح رجل من الداخل في فرح:

– الرسومات ع الحيطة يا عمدة.

ويصيح آخر:

– دي مجبرة أشراف.

وتهتف النساء الواقفات وراء الرجال:

– وين الكنز يا عمدة.. لجيتو الكنز.. خلينا نعدي.

ويصل العمدة إلى داخل المقبرة، ويرفع المصباح ملوحًا به في كل مكان، باحثًا عن القدور المملوءة بالذهب، والصواني المحملة بالطعام.. ويدرك بخبرته السابقة، وتجاربه الماضية أن المقبرة مسروقة، سبقه إليها أجداده من نفس القبيلة واستولوا على ما فيها من كنوز.

ويترك العمدة مكانه، ويتجه إلى الخارج وهو يجيب بصوت حزين عن الأسئلة التي يمطرونه بها:

fb/mashro3pdf

- ما لجيتش دهب.. ما لجيتش مساخيط.. المجبرة مسروجة ولا يصدق أحد كلام العمدة.. الرجال يضربون الحائط في أي مكان بمعاولهم.. يضربون في جنون باحثين عن حجرة سرية داخل المقبرة.

والنساء مصممات على أن يرين بأعينهن أن الذهب غير موجود.

ويذهب العمدة بعيدًا، وقد طغى عليه حزن قاتل، ويهبط الجبل، ويجلس وحيدًا على الأرض، يفكر في المسئوليات التي سيواجهها عندما ترتفع شمس اليوم التالي:

ويصاب أهل الجبل بنكسة من اليأس الحزين.

وفي الصباح يتغير حديث النساء.

واحدة تقول:

- أبو سعد انهد الجبل عليه.. وسعداوي وجع في بير.. ورضوان خطفته المساخيط.. ولا حصلوش حاجة.. لا دهب ولا جواهر.. ما فيش ورا الكحت إلا الموت.

وتقول ثانية:

- الجبل غدار بيجصف العمر.

والمرأة التي كانت ترفض الذهاب إلى أسيوط لتخدم زوجة أخيها.. تذعن وترضخ وتفكر في السفر إلى أسيوط.

أما الرجال فتسري بينهم نغمة جديدة من الكلام..

يقف رجل وسطهم ويقول:

fb/mashro3pdf

-- كيف يا رجالة مكتوب علينا الفجر.. رزج الراجل في دراعه طول ما في إيدي فاس.. أنا يا رجاله محبطلش.. الرزج ما يعصاش ع الراجل الشديد.. أنا نازل بنايات المهندس.

ويقتنع الرجال بما يسمعونه.. فيمضون إلى مهندس القرية النموذجية، ويقبلون على العمل في بناء القرية التي لا يريدون سكناها.

كل ما يفكرون فيه، هو القروش القليلة، التي يقبضونها في آخر النهار.

***

ويدرك المهندس من إقبال أهل الجبل على البناء، أن مقبرة جديدة قد اكتشفت.. وأنها كانت مسروقة، فلم يجدوا فيها شيئًا.

ويكتب تقريرًا عاجلاً، منددًا بضياع آثار مصر الفرعونية.

وتسري الشائعة بين علماء الآثار، أهالي الجبل قد اكتشفوا مقبرة جديدة.. أين؟. لا أحد يدري.. إن مئات المقابر ما زالت مخبأة مجهولة في جوف الجبل.. إنهم واثقون من ذلك، ولكن كيف يصلون إلى هذه المقابر، بنفس السرعة التي يصل بها الأهالي.. كيف يتغلب منام العمدة على كتب الآثار؟

إن الشيخ الذي يأتي للعمدة في المنام، ولي من أولياء الله له مقام صغير عند سفح الجبل، تتبرك به نساء القرية، ويستلهمه الرجال في عملهم.

ويجلس علماء الآثار، يتداولون ويناقشون أسطورة هذا الولي ذي الكرامات، ويؤكد واحد منهم قائلاً: إنه ليس وليًا من أولياء الله.. لقد كان أحد جدود هذه القبيلة.. عاش منذ أكثر من مائة عام.. وكان بارعًا

fb/mashro3pdf

في اكتشاف المقابر الفرعونية، يشم مكانها بأنفه، وإذا ضرب بفأسه فلابد أن يصل إلى مقبرة، ولابد أن يجد شيئًا يبيعه للمهربين.

والمهربون كثيرون.. بينهم العلماء والسياح. العلماء يأتون إلى الجبل ليبحثوا عن الكنوز من أجل معرفة الحقيقة والتاريخ، ولكنهم بشر، لا يستطيعون مواجهة الذهب دون أن يفكروا في شيء آخر غير العلم.. الذهب يثير طمع الإنسان، ويحول العالم الأثري إلى مهرب.. ويحول الباحث المنقب إلى لص، ويحول السائح إلى مغامر.. حتى الفنان يرى التمثال الفرعوني فيتأمل ما فيه من فن لحظات، ثم يفكر في قيمة الذهب المصنوع منه التمثال لساعات طوال.

كان ولي الله في حياته، يجد دائمًا من يبيعه الآثار التي يحصل عليها.. ثم اختفى فجأة.

وسرت شائعة في الجبل.. أنه كان يضرب بفأسه ليفتح أحد المقابر، عندما انشق الجبل، وانبعثت من داخله أضواء ساحرة، وتقدم الرجل إلى مصدر الضوء، فرأى من في المقبرة من فراعنة قد عادوا إلى الحياة.. الملك الجالس على عرشه وإلى جانبه حاشيته، وأمامه الراقصون والراقصات، والموسيقيون والمنشدون، وعلى الموائد طعام طازج شهي.. كان البعث قد أحيا أهل المقبرة، واستقبلوا الرجل مرحبين، واستضافوه ليعيش معهم في حياتهم الثانية بعد البعث.. ولم يعد الرجل من المقبرة ولا يعرف أحد حتى اليوم مكانها.. وأقاموا له ضريحًا، لأنه ولي من أولياء الله.. حقق المعجزات والكرامات.

fb/mashro3pdf

ويقول عالم الآثار: إنه لا يصدق هذه الشائعة، لأنها خرافة.. وهو يعتقد أن الرجل اختفى لأنه عثر على أثر نفيس فهرب به بنفسه.. وباعه بثروة طائلة، وأصبح واحدًا من الأغنياء في مصر.. أو ربما في الخارج.

أما أهل الجبل فهم متمسكون بقصتهم.. ويؤمنون بجدهم الأكبر ولي الله، الذي سينقذهم من الفقر يومًا، عندما يأتي لواحد منهم في المنام ويرشده إلى كنز كبير.

***

ولما عجز المهندس عن إقناع أهل الجبل بسكنى قريته النموذجية، وأن يتخلوا عن أحلامهم في الكنز.. لجأ إلى أسلوب التفرقة بينهم.. اختار واحدًا منهم، وأعطاه مالاً أكثر من غيره، وجعل منه مقاولاً للأنفار.. إذا أرادوا أن يعملوا في البنايات، جاءوا عن طريق هذا المقاول، الذي يتقاسم معهم يوميتهم، ومع مرور الوقت، أثرى المقاول، فبدأ يحرِّض أهله على النزوح إلى القرية النموذجية والسكنى فيها، وراوده حلم العمودية في القرية النموذجية.

كان المقاول يقف بين أهل الجبل قائلاً:

- كنز.. يا مجانين.. كان جدودنا أشطر.. راجل ورا راجل منكم يموت.. والآثارات زي ما هية.. حجارة.. ما بجتش تخبي كنوز.. خطفوها من زمان.. هو في الجبل رزج.. أنا كبرت هنا.. وطول عمري أسمع الكلام ده.. أبويا كحت الجبل مترين.. والمترين بجو عشرة.. سرداب طويل.. ووجع الجبل عليه.. جم العسكر ياخدوه مجعدش.. مات.

fb/mashro3pdf

فيهز العمدة رأسه ويقول:

- ومن يومها.. وأنت بتترعب م الجبل.. والآثارات.. ثم ينظر في الرجال من حوله ويتهدج صوته قائلاً:
- راجل ورا راجل بيموت ماحدش منا فات أهله.. إحنا جاعدين هنا، لما تفرج علينا كلتنا.

وأصبح العداء سافرًا بين المقاول والعمدة، وانضم الأهالي إلى عمدتهم الفقير.. وانضم المقاول إلى المهندس وتحول إلى واحد من أتباعه. وبقيت القرية بلا سكان، وظلت المعركة مستمرة.

fb/mashro3pdf

الفصل الرابع

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

انقضى الليل، و لم يقع الهجوم المرتقب على القرية.. وكان المهندس بعد أن فرغ من قصته عن أهل الجبل قد ذهب ونام على سرير "عنجريب" في حجرة ضيقة، ليس فيها غير مقعد، ومرآة مثبتة بمسمار في الحائط، أما أنا فقد أمضيت ساعات الليل الأخيرة.. وكل حواسي مركزة في أذني، أنظر وأتنفس وأفكر بأذني.

ولم أسمع أي صوت.. لا صياح ولا همس، ولا نباح كلاب ولا أي شيء.. كان الليل أخرس لا يفصح عما في داخله، إنه صمت قبور الفراعنة، صمت موتى.. ماتوا منذ آلاف السنين.

وطلع الفجر، فتبينت مع ضيائه الأوَّلى أني مشلول فوق مقعدي، لا أفعل شيئًا، وأحسست أني قضيت وقتًا طويلاً، وأنا كالجماد.. لا يدور في رأسي سوى الفراغ، ومضت ساعة أخرى، انتشر فيها الضوء الداخل من النافذة.. وازداد إحساسي بالإجهاد والتعب، وقررت أن أحسم موقفي، وأقرر ماذا أنا فاعل اليوم، هل أعود إلى الأقصر.. أم أصمم على الذهاب إلى أهل الجبل مجازفًا بحياتي؟ وقبل أن أستقر على رأي، هرب عقلي من التفكير في المشكلة.. فأغفيت ونمت.

واستيقظت فجأة على صوت أقدام تروح وتجيء خارج الحجرة، فتحت عيني، فوجدتني ما زلت أجلس على المقعد، وأمامي الشطرنج الذي كنت ألعب به مع المهندس، والسرير "العنجريب" لم أمسه والأغطية فوقه مرتبة نظيفة، ومسحت وجهي بكفي، وقمت وأنا أشعر بمفاصلي تتكسر وخرجت من الحجرة.

fb/mashro3pdf

ورأيت المهندس يقف نشيطًا وسط حوش البيت، وقد تدثر بعباءته الخضراء.. وحيّاني ثم قال ضاحكًا:

– اللوري جاهز.. علشان يوصلك للمركب.

فقلت له على الفور:

– اللوري حيوصلني الجبل.

فنظر إليَّ طويلاً في غير فهم ثم قال:

– أنا قلت لك دا خطر عليك.

فأجبته في عصبية:

– خطر.. خطر.. زي بعضه.

كان شيء في داخلي يرغمني على الكلام.. هل فكر عقلي واتخذ قرارًا وأنا نائم؟ لست أدري، كل ما أعرفه، أني ألححت في عناد على الذهاب فورًا إلى الجبل.

وهز المهندس كتفه يائسًا، ونادى سائق اللوري فجاء نفس السائق الذي أوصلني إلى القرية، ونظر إليَّ في حيرة.. وقال له المهندس متسائلاً:

– توصل البيه لعمدة الجرنة؟

وبان التردد على وجه السائق.

فصحت في ضيق:

– أنا رايح ضروري.. حتى لو مشيت لحد هناك.

كنت ثائرًا بلا مبرر.. ثورة من فقد أعصابه، ويريد أن يواجه بأي ثمن هذا الخطر الذي يخفيه ويفزعه، لأنه لم يعد يطيق الانتظار.

fb/mashro3pdf

وقال المهندس للسائق في هدوء:

- اسمع يا سيد.. أنت توصل البيه قريب من الجرنة.. وتستناه.. ومتنزلش من اللوري لحد ما يرجع.. أنت فاهم.. متنزلش من اللوري.

فاحتج السائق:

- كيف أنزل يا سعادة البيه.

كان الرجل يحتج بصوته، وبإشارات يديه.. ويتحرك في نفس الوقت نحو اللوري لنقلي إلى الجبل.

***

اندفع اللوري في طريق وعر، يرتفع فوق هضبة صخرية نبتت فيها الحشائش في غير نظام، والسائق صامت لا يدري ماذا يقول، ولعله كان يفكر في عدم اكتراثه بي عندما رآني لأول مرة.. وظن أني أحد الموظفين الصغار الذين جاءوا لزيارة معالم القرية النموذجية.

وقلت للسائق فجأة:

- أنا سمعتك امبارح بتتكلم مع الراجل اللي كان راكب معانا عن الست الفرنساوية.

فأجاب في وجوم دون أن يلتفت إليَّ:

- أيوه يا سعادة البيه..

fb/mashro3pdf

وضغط على البنزين، فازداد اندفاع اللوري، واشتد ارتجاجه كأنه يتمنى أن ينقلب بنا اللوري، على أن نصل إلى الجبل، أو يجاذبني الحديث حول الست الفرنساوية.

وصممت على سؤاله:

– كنت بتقول إن الرجالة بيروحوا في بيتها بالليل.. قصدك إيه؟

وسكت الرجل ولم يجب، وأطلق نفير اللوري، دون أن يعترض طريقنا أحد.

وصحت فيه:

– هيه.. قصدك إيه؟

– ولا حاجة يا سعادة البيه.

كان المسكين في مأزق، وكنت عنيدًا كالطفل في سؤالي، وألححت عليه:

– الرجالة بيعملوا إيه في بيت الست الفرنساوية بالليل؟

– معرفش يا بيه.

– بيهربوا الآثارات عندها؟

والتفت الرجل إليَّ رغمًا عنه، حتى كاد اللوري يخرج عن طريقه، ونظر إليَّ في فزع، وهتف:

– دا كلام بيجولوه.. ما أعرف إن كان صح والا كذب.

وشعرت بالارتياح.. إذن فهناك شائعة على الأقل، حول حقيقة هذه المرأة الفرنسية، إنها شائعة تفسر شذوذها، وأنا أشك كثيرًا في الشذوذ.. ولا أرتاح له، وأتوقع دائمًا شيئًا وراءه.. إني على استعداد الآن لتقبل كل

fb/mashro3pdf

التصرفات الشاذة لهذه المرأة، نفورها من القرية النموذجية، وكراهيتها للكهرباء، ودفاعها عن الطبيعة البدائية.. ورغبتها في الاحتفاظ بالأهالي كما هم، وملابسها الغريبة، كل هذا يخفي وراءه مصلحة واضحة، هي الآثار التي تحصل عليها من الأهالي، وتهربها إلى الخارج، إني لا أملك دليلاً واحدًا عليها، و لم أسمع اتهامًا مباشرًا واضحًا ضدها.. ولكن عقلي يرتاح لهذا التفسير.. ولا يرضى بأنها مجرد فرنسية ضاقت بمدينة باريس، وأحبت الجبل، فجاءت لتعيش فيه بعيدًا عن فساد الحضارة وزيفها.

ربما أحبت الجبل فعلاً.. أحبت رجال الجبل.. ربما كانت تستمتع برجولتهم في الليل، إني أرتاح لهذه الصورة أيضًا، فرنسية شقراء، بضة، ترتدي ملابس الأعرابيات، وعمامة مراكشية، وتعطي جسدها لرجال فحول.. لقاء كنوز الفراعنة.. إن رجال الجبل لا يثرون أبدًا، الفرص النادرة التي يحصلون فيها على أثر فرعوني، لا تتيح لهم الحصول على المال الوفير.. إنها تتيح لهم فقط الحصول على جسد فرنسية شقراء.

وأعجبني هذا المنطق..

وسألت السائق من جديد:

- أظن رجالة الجبل بيحبوا الست الفرنساوية!

وابتسم السائق وبدا عليه الارتباك.. ولكنه أسرع يقول:

- حد الله بينا وبين الحاجات دي.. أنا في حالي يا بيه.. ما ليش دعوة بيها..

فقلت له:

- بيتخانقوا عليها.. بيقتلوا بعض علشانها.

fb/mashro3pdf

وتجهم وجهه وقال:

– ليه يتعاركوا يا بيه.. كلهم ولد عم.. يجتلوا الغريب ما يجتلوش بعض.

ورفض الرجل أن يضيف شيئًا آخر.. وكلما ألحت في سؤاله، ردد قائلاً: "أنا في حالي يا بيه".

وأشرف اللوري على سطح الهضبة، وظهرت كهوف أمامنا في سفح الجبل، وقبة وحيدة لضريح، لا شك أنه مقام الشيخ الذي تتبرك به الجرنة.

وأوقف السائق اللوري.. ونظر أمامه في قلق وحذر.. ثم أشار إلى بعيد، وقال:

– العمدة.. هناك ها.

ودققت النظر أمامي. فلم ألمح شيئًا.. فسألته بقلب واجف:

فأشار بيده وتبعت اتجاه يده، فرأيت رجلاً واقفًا وفي يده بندقية، ممسكًا بها ولكنها غير مصوَّبة نحونا.

ولم أقل شيئًا.. هبطت من اللوري.. ومضيت في هدوء نحو الرجل، أسير نحوه كالمنوم.

كان الرجل يقف صامدًا كتمثال فرعوني.. ينظر نحوي في جمود، والمسافة بيني وبينه تقترب شيئًا فشيئًا، وأنا لا أكاد أراه بعينيَّ الزائغتين، وقدماي تتحركان بغير إرادتي، وطنين يدوي في رأسي، حتى أصبحت على مبعدة عشرين مترًا منه فإذا به يرفع بندقيته بسرعة خاطفة، ويصوبها نحوي، ويضع إصبعه على الزناد.

ووقفت مكاني متصلبًا لا أقوى على الحركة.

fb/mashro3pdf

ومضت قرون من الزمان، والرجل لا يقول شيئًا، وهو يصوب فوهة بندقيته نحوي، وأنا واقف بلا حراك في مكاني.. لا أدري كيف أتصرف.

وأخيرًا صرخ الرجل:

- أنت مين:

وبلعت ريقي وجاهدت حتى أحصل على أنفاسي، ولم أقو على الكلام.. كانت عيناه صارمتين، ترسلان وميضًا من البريق الأسود.

وسدد الرجل بندقيته، وصرخ من جديد:

- أنت مين؟

وخرج مني صوت غريب أنكرت أنه صوتي.. كان الصوت يقول في ذلة مخيفة:

- أنا عايز حضرة العمدة.

قلت "حضرة العمدة" كما لو كنت أقول "حضرة صاحب الجلالة".. وفكرت في أن أستدير وأجري نحو اللوري ولكني خشيت أن ألتفت ورائي.. كانت الرصاصة ستنطلق حتمًا وتستقر في رأسي أو قلبي.

وخف صراخ الرجل. وسألني:

- عايزه ليه؟

قلت له:

- أنا جاي مخصوص من مصر علشان أشوفه.

ونظر إليَّ الرجل في ارتياب.. ثم التفت إلى جانبه، ولمحت في اللحظة جسدًا ممددًا على الأرض فوق "برش" من الخوص كان جسد رجل نائم.

fb/mashro3pdf

واقترب الرجل مني، وفوهة بندقيته تتقدمه، حتى أصبحت على قيد بوصة من قلبي، وعيناي مستقرتان على إصبعه الذي يكاد يضغط على الزناد.

وقال الرجل في تحد:

- العمدة نايم.

وكدت أستأذنه في الانصراف، ولكني خشيت ألا يسمح لي، وطمأنني أن الرجل ليس العمدة، وأن النائم هو العمدة، أردت أن أتفاهم مع ذلك النائم.. نظرت إلى الجسد الممدد على "البرش" فرأيت رأسًا انتشر فيه الشيب، وراعني منظر سحال طويلة كالثعابين تمرح حول رأسه.. ونظرت تحت قدمي فرأيت سحالي أخرى كثيرة، فشببت على أطراف أصابع قدمي وأنا ألعن غبائي وجبني اللذين دفع بي إلى هذا المكان.

وتوسلت للرجل:

- اعمل معروف.. لازم أكلم العمدة، أنا سافرت وجيت مخصوص من مصر علشان أكلمه.. الحكومة بعتاني له.

وتردد الرجل قليلاً.. كان يفكر في إيقاظ العمدة.. وهل يستحق مثلي أن يقطع العمدة من أجله نومه العميق.. كانت الشمس ساطعة، والمكان خاليًا من الأهالي.. إنهم ولا شك قضوا الليل كله يكحتون الجبل، بحثًا عن الكنز.. فناموا بالنهار.

وفضل الرجل أن يوقظ العمدة على أن يقتلني، فخفض بندقيته، واتجه إلى العمدة، وهمس بصوت رقيق حنون، عجبت كيف يصدر منه:

- يا عمدة.. يا عمدة.

fb/mashro3pdf

ورفع العمدة رأسه.. ونظر إلى الرجل فقال له وهو يشير إليَّ:

- راجل من رجالة المهندس عايز يكلمك.

وفوجئت به يصفني بأني من رجالة المهندس، لقد أوضحت له أني جئت من مصر، وأن الحكومة أرسلتني إلى العمدة.. ولكنه كان واثقًا من كذبي.. و لم يتظاهر بأنه يصدقني.. كان كلامه للعمدة صفعة موجهة إليَّ.. إلى ذمتي وأمانتي.. ولابد أن اللوري الذي حملني إلى هنا هو الدليل القاطع الذي استند إليه في أنني أحد رجال المهندس.

وأدار العمدة رأسه وهو ما زال راقدًا فوق "البرش"، متكئًا على كوعه ليرفع رأسه قليلاً، ونظر إليَّ نظرة عميقة. بعينين ضيقتين جسورتين، ومد يده اليسرى نحوي، كأنه يطلب مني أن أساعده على النهوض، وتقدمت منه، ومددت له يدي، فقبض عليها و لم ينهض من رقدته، جذبني بشدة فوقعت على الأرض بجانبه وفرت السحالي مذعورة من حولي.

كان العمدة العجوز رجلاً قويًا، ودبت القشعريرة في بدني، كنت أرتعد من كل شيء، من البندقية، والعمدة والسحالي، والأرض التي وقعت عليها، و لم يترك العمدة يدي، تفرَّسني بعينيه كأنهما مسماران يثقبان رأسي، وتأنَّى وهو يحدق فيَّ دون أن يهتز له جفن أو رمش، أو عضلة في وجهه الخشن المجعد.

وسألني فجأة في صوت عميق كأنه صادر من بئر سحيق:

- أنت مين؟

كان يسألني، وليس في عينيه ولا في وجهه ما ينم عن انفعال أو قلق. كان وجهه جامدًا صلدًا كالحجر.

fb/mashro3pdf

وقلت له محاولاً أن أكون هادئًا:

- أنا جاي من وزارة المعارف في مصر.. علشان الشكوى اللي كتبها "حسين علي" باسمكم ضد القرية النموذجية.

وأطرق الرجل برأسه، وشدد من قبضة يده على ذراعي وقال:

- أنت من رجالة المهندس.. هو اللي بعتك؟

- فأنكرت في حرارة وقد نسيت تمامًا السحالي التي تمرح من حولي:

- أبدًا. والله.

فأشار بيده الأخرى التي لا تقبض عليَّ، نحو اللوري الواقف بعيدًا وقال:

- أنت جاي في اللوري بتاعهم؟

وانتهزت الفرصة لأدافع عن نفسي:

- أنا طلبت اللوري علشان يوصلني عندكم.. لكن أنا ما أعرفش المهندس وما ليش دعوة بيه.

فقاطعني قائلاً:

- اسمك إيه؟

فأجبته:

- فتحي غانم.

- والمهندس هو اللي بعتك؟

قالها في هدوء كأنه يشجعني على الاعتراف بهذه الحقيقة و لم أملك غير الصبر، وعدت أؤكد له من جديد:

fb/mashro3pdf

– قلت لك أنا ما ليش دعوة بالمهندس.

وأفرج عن ذراعي الذي يقبض عليه، ودس يده في داخل صدره، وأخرج "نوتة" صغيرة وقلمًا قصيرًا.. قلم كوبيا.

وسألني من جديد في هدوء قاتل:

– اسمك إيه؟!

– فتحي غانم.

– وجاي منين؟

– من مصر.. من وزارة المعارف.

ومد يده "بالنوتة" والقلم قائلاً:

– اكتب اسمك وعنوانك هنا.

ومددت يدي لآخذ "النوتة" منه.. ولكنه عاد وسحب "النوتة" بسرعة، وقلب بعض صفحاتها، حتى استقر عند صفحة بيضاء، وقال لي:

– اكتب هنا.

ومددت يدي إلى جيبي لأخرج قلمي الحبر، ولكنه قال في تصميم:

– اكتب بالقلم ده.

وأعطاني القلم الكوبيا، وكتبت اسمي، وكتبت عنوان إدارة التحقيقات "عمارة سيف الدين بشارع القصر العيني".

وأخذ مني " النوتة " وقربها من عينيه ليقرأ في عناية وتمحيص.. ثم رفع رأسه عن "النوتة" وسألني من جديد:

– اسمك إيه؟

fb/mashro3pdf

كان يكرر هذا السؤال كأنني في كابوس مزعج..

وعدت أجيبه في يأس:

- فتحي غانم.

ونظر إلى اسمي في "النوتة" برهة طويلة.. ثم سألني:

- وعنوانك؟

فقلت له:

- عمارة سيف الدين بشارع قصر العيني.

ولمعت عينا الرجل بالشر، وقال بصوت هادر: جعل الرجل الممسك بالبندقية يقترب مني، ويصوبها إليّ. صاح العمدة:

- أنت كداب.. دا موش عنوان الوزارة:

وأجبته بسرعة والعرق يتصبب على جبيني:

- عنوان الوزارة. شارع الفلكي، لكن إدارتنا في شارع قصر العيني، والله العظيم أنا باقول الحق:

فمد لي يده بالنوتة، وقال في حزم:

- اكتب عنوان الوزارة.

وكتبت عنوان وزارة المعارف بشارع الفلكي.. وأخذ مني النوتة وقرأها من جديد.. وأشار بإصبعه إلى ما كتبته وقال لي:

- اقرأ العنوان.

وفي تلك اللحظة صدمتني حقيقة مذهلة، أحسست فجأة أنه لا يعرف القراءة والكتابة، إنه يمتحنني بالورقة والقلم، دون أن يستطيع قراءة حرف

fb/mashro3pdf

واحد مما أكتب.. ومنعني خوفي من أن أواجهه بهذا الاكتشاف.. كان من مصلحتي أن أتركه يواصل محاولاته الخاصة للتأكد من شخصي.

ونهض العمدة فجأة، فإذا به طويل.. عملاق.. مارد.. وجذبني معه، فأصبحت واقفًا إلى جانبه، ومد يده اليمنى، وقبض بها على كفي، كأنه يسلم عليَّ، وقال لي في انفعال:

- جول معايا.

ونظرت إليه مستسلمًا في غير فهم. ومد إصبع يده اليسرى نحو عيني وهتف:

- وعينيك.

كنت أرتعد في غباء مطبق. فكرر من جديد:

- جول معايا.. وعيني.

قلت مترددًا:

- وعيني.

وهبط إصبعه إلى فمي وهتف:

- وخشمك.

- وخشمي.

وشدد القبض على يدي وقال:

- ودراعك.

وقلت:

- ودراعي.

وأشار إلى رجلي وهتف:

fb/mashro3pdf

- ورجليك.
- ورجلي.

وزادت حدة انفعاله وهو يقول:

- إن شاء الله.. يصيبني بالعمى والخرس والشلل.

وترددت.. فصرخ فيّ.. فكررت بسرعة وراءه:

- إن شاء الله يصيبني بالعمى والخرس والشلل.

وقال في حدة:

- إن كنت كذاب والا من رجال المهندس.

وصاح:

- اجرا الفاتحة.

وتمتمت بالفاتحة، ولكنه لم يرض بصوتي الخفيض، وطلب مني أن أقرأها بصوت مرتفع، ولما فرغت من الفاتحة تهلل وجهه بشرًا، وشد على يدي مرحبًا، وقادني إلى "دكة" خشبية، جلسنا عليها، وقال للرجل الممسك بالبندقية.

- هات يا إبراهيم البرتقانات.

واعتذرت له عن أكل البرتقال، ولكنه لم ينصت إلى اعتذاري ولم يأبه به.. وربت على كتفي في عطف، وقال لي:

- سلامات.. شرفتنا.

وانتهزت الفرصة كي أسترد أنفاسي، وأستعيد أفكاري وأنظمها، وبرز لنا في هذه اللحظة شاب يبدو عليه أنه أبله، يسيل اللعاب من شدقيه، ويركب عصا من الجريد، اقترب منا وهو يقفز في الهواء، ودس العمدة

fb/mashro3pdf

يده في جيبه وأخرج له تمرتين وأعطاهما له، وجلس الأبله يأكلها عند قدمي العمدة، وضع الأبله التمر في فمه ولاكها في شغف، وأشار إليَّ قائلاً للعمدة:

– يا عمدة.. هو دا عسكر.

والتفت الأبله إليَّ وقال كأنه يحفظ كلامًا عن ظهر قلب:

– لا لجينا حاجة.. ولا كحتنا الجبل.. ولا لجينا دهب ولا مساخيط.

وقال العمدة وهو يضحك، فبدت أسنانه الصفراء في فمه:

– يا واد اسكت.. الأفندي جاي علشان متنزلوش البنايات..

وحاولت أن أقول شيئًا أشارك به الحديث، فسألت الأبله بغير وعي:

– أنت موش شايف إن البنايات أحسن من هنا.

وأدركت في الحال أني ارتكبت خطأ جسيمًا.. هب الأبله مذعورًا من مقعده وصاح مقلدًا التراجمة:

– جنتلمن.. كان هنا فيه ملك.

ثم جرى قافزًا بعصايته الجريد، وهو يصرخ وينادي يا محمد يا صالح.. يا جازيه.. يا مكي.. يا حسان.. يا معوض.. يا أم الخير.. يا شيخ غريب.

وقال لي العمدة في تأنيب:

– رعبته يا شيخ.. ليه تجول له أن البنايات أحسن؟

ولم تمض ثوان، حتى رأيت رجالاً ونساء انشق عنهم الجبل زاحفين نحوي.

fb/mashro3pdf

وكانت أسرعهم في الوصول إلينا، امرأة شابة، غارقة في ملابسها السوداء ولا يبدو منها غير وجه وسيم، تضيئه عينان واسعتان جميلتان.

وقالت المرأة في حدة موجهة كلامها للعمدة:

- جلت له إيه يا عمدة.. إوعى يكون بيضحك عليك.. ويكون من رجالة المهندس؟

فصاح العمدة في حنان أبوي:

- لا يا بت.. أنا مكتِّبه اسمه وعنوانه.. وأخذت عليه عهد الله إنه من مصر.

و لم تقتنع المرأة بما سمعته، فسألت في اهتمام:

- مضيت له على حاجة؟

وارتفع صوت العمدة وهو ينكر أنه وقّع على شيء.. وسط أصوات مختلفة انطلقت حولنا.

- شوف يا حضرة الأفندي.. إحنا موش متعلمين.. مغرضناش ننزلوا واصل.. الجبل جبلنا.. وجبل جدودنا.. لوري الآثارات واجف يعمل إيه.

وتركهم العمدة، يقولون كل ما يجول في صدورهم، وهو ينظر إليهم في اطمئنان وسرور.. ثم قال لهم أخيرًا:

- جلتلكم الأفندي جاي من مصر.. وجاي يسمع شكوتنا.. وأنا اللي ح أكلمه.

وانطلق صوت محتجًا:

- ولوري الآثارات.

fb/mashro3pdf

فصاح العمدة.. ح نمشيه.. والأفندي يجعد معايا أجوله كل حاجة على المهل، روح يا إبراهيم جول للوري يمشي من هنا.

و لم أقو على الاعتراض.. بل أيدت طلب العمدة، وقلت له:

– أنا رايح مع إبراهيم علشان أكلم السواق.

وذهبت إلى السائق، وقلت له أن ينصرف لحاله، وما كاد السائق يسمع الأمر، حتى رحب به، لم يسألني كيف أعود، لم أسأل نفسي هذا السؤال.. انطلق السائق باللوري وهو يشكر الله لأنه نجا بجلده.. وعدت أنا إلى العمدة وحدي تحت رحمته تمامًا.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الخامس

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

أكلت "البرتقانات" التي جاء بها الرجل الذي كاد يقتلني ببندقيته، و لم أستطع الانفراد بالعمدة لأسمع منه ما يريد أن يقوله لي: تكاثر حولنا أهل الجبل، وقد ارتفعت أصواتهم تطالبني بأن أزور مقابر الفراعنة، قبل أي شيء آخر.

كانوا يتحدثون عن المقابر، كما لو كانت من ممتلكاتهم الخاصة، لا دخل للحكومة بها، ولا سلطان لأحد عليها سواهم.

وتركني العمدة لهم، وقال لي إنه سينتظرني حتى أعود إليه، ومضيت مع قافلة من النساء والرجال نحو المقابر. وقد سادت بينهم حركة نشيطة.. امرأة تجري إلى أحد الكهوف، وتخرج منه بمرآة، ورجل يسرع إلى كهف آخر ويأتي ومعه بطارية صغيرة، وصبي يتقدم مني ويشد قماش بنطلوني ويبرز لي تمثالاً فرعونيًا صغيرًا.. قائلاً في إلحاح:

– اشتريه.. اشتريه.

فينهره رجل كبير، ويهشه بعصا غليظة في يده، قائلاً له في عصبية وشهامة:

– متجربش يا واد.. دا ضيف مش م السياح.

وشكرت للرجل في نفسي مروءته.. وأحدث قوله "ضيف علينا" رد فعل مفاجئ للخوف الذي كنت أعاني منه، أحسست بالطمأنينة تنساب في صدري وأيقنت أنهم لن يصيبوني بأذى.

ووقفت عند شيء عجيب، كأنه قلعة ضخمة من القلاع التي تستخدم في لعبة الشطرنج، وعلى سطحها نام طفل صغير.. وقالوا لي إن البناء

fb/mashro3pdf

لخزين القمح، وأن سطح البناء على حافة مستديرة مائلة إلى الخارج، لأن العقارب لا تستطيع الزحف على المسطحات المائلة، فتحتفظ الأمهات بأطفالهن على السطح وهن مطمئنات على أطفالهن، وعجبت لنفسي، كيف لم أفزع في تلك اللحظة وأنا أسمع عن العقارب، لعل شيئًا في داخلي قد تغير دون أن أشعر، هل هو الاستسلام، أم اليأس أم هو اطمئنان حقيقي إلى المكان.. لست أدري!

ورأيت المرأة التي جاءت بالمرآة تجلس القرفصاء وتعكس أشعة الشمس بمرآتها نحو فوهة أحد الكهوف فتضيئه من الداخل، و لم يكن الكهف في هذه المرة بيتًا للسكنى.. كان مقبرة فرعونية.

وتقدمني أحد الرجال إلى داخل الكهف فتبعته، وظل الآخرون في الخارج.. كان الكهف حجرة صغيرة، حوائطها منقوشة بألوان زاهية.. رسوم فرعونية لفلاحين يزرعون ويحصدون، وكاتب حسابات يدفع أجور الفلاحين، وآخر يزن القمح بمكيال.. وانطلق الرجل يشرح لي ما أراه على ضوء النور الذي تعكسه المرآة من أشعة الشمس.

لم يقل كلامًا خرافيًا، و لم يسترسل في حواديت ساذجة، تكلم كعالم آثار خبير، يحفظ التاريخ بدقة، وينقله إلى سامعه بأمانة.

قال لي إن كل الكهوف في هذه المنطقة تحوي مقابر الأشراف؛ أي طبقة كبار الملاك والأثرياء من الفراعنة، والملوك الفراعنة لهم مقابر في مكان ثان، ولملكات الفراعنة مقابر في مكان ثالث.

وسألت الرجل:

– وليه أنتم ساكنين مع الأشراف؟

fb/mashro3pdf

فنظر باسمًا إلى صور الفلاحين المنقوشة على الحوائط منذ آلاف السنين وقال في بساطة وحرارة وإيمان:

– دول أجدادنا يا بيه.

كان ينظر إلى الصور وفي عينيه نفس الحنين الذي نشعر به عندما نتأمل صورة قديمة لقريب عزيز مات في عائلتنا.. لا شك أنهم لا يحافظون على هذه الصور بدافع التقديس للعلم والتاريخ.. إنهم يحافظون عليها بدافع رابطة الدم بينهم وبين أجدادهم الفراعنة.

وأضاء الرجل بطاريته الصغيرة، وصوبها إلى صورة الفلاح الذي يكيل القمح، وقال ضاحكًا:

– الراجل ده سحنته مثل العمدة.

إنه يرى في صور الحاصدين والزارعين والذين يقبضون أجورهم، عائلته القديمة، أنه في صميمه ليس رجل الجبل. إنه فلاح.. الجبل هو الحائط الأخير في طريق عشيرته، طردتهم ظروف الحياة من الحقول وأبعدتهم عن كل شيء، وتقهقروا حتى أسندوا ظهرهم إلى الحائط.. إلى الجبل.. وهنا وقفوا ليحاربوا من أجل بقائهم في الدنيا.

إنهم لا يعرفون كيف يتقدمون.. كيف يتطورون بحياتهم، فيلتفتون إلى الجبل، إلى الحائط من خلفهم، ويضربون لعل الصخر ينفتح عن أمل.. عن مستقبل.

صخور الجبل في داخلها عرق أجدادهم وتعبهم، تخفي الكنوز التي صنعوها، وحملها الأغنياء – الأشراف – إلى مقابرهم، ولقد جاءوا إلى

fb/mashro3pdf

الجبل وراء حقهم الذي دفنه الأشراف، يريدون استعادة الميراث الذي خلفه لهم الأجداد.

دارت رأسي بهذه الأفكار، وأنا أتأمل على ضوء البطارية ملامح العمدة الفرعوني الذي يكيل القمح، إن العمدة الحالي يكيل في أحلامه الذهب.. هل الذهب وحده هو الذي يبقيهم في هذا المكان. أليست هذه الرسوم على الحائط باعثًا آخر على التصاقهم به. خطر لي هذا السؤال، ولكني أنكرته في الحال.. إنه خاطر عاطفي جميل.. ولكنهم لا يملكون فرصة التمتع بالعواطف الجميلة المجردة.. إنهم في معركة من أجل العيش.. في معركة مع الحكومة.. وفي الحال خطر لي سؤال آخر عجبت كيف لم أفكر فيه من قبل.. سؤال لا شك أنه خرج من عقلي الباطن، وأنا أشاهد صور العمل في الحقول الفرعونية.. البذور والحرث والحصاد، كان السؤال:

ما العمل الذي ينتظر أهل الجبل لو تخلوا عن كهوفهم، وهبطوا إلى القرية النموذجية؟

وانتابتني رعدة، وأنا لا أجد إجابة عن السؤال.. هل يمكن هذا.. أن يقوم مشروع حكومي ضخم تنفق فيه الأموال وترسم فيه الخطط، وتتحرك فيه عبقرية الفن، دون أن يسأل أحد نفسه.. ما الذي سيصنعه هؤلاء الناس في قريتهم الجديدة؟ مستحيل.. لابد أن المهندس يعرف الإجابة عن هذا السؤال.. ولابد أن العمدة أيضًا يعرف ماذا يراد به هو وأهل الجبل.

سأسأل العمدة بمجرد أن أفرغ من مشاهدة هذه المقبرة.

لقد بدأت أتبين عمقًا جديدًا للشكوى التي أحققها.. شكوى "حسين علي".

fb/mashro3pdf

أين "حسين علي"؟

وسألت الرجل في الحال:

– "حسين علي" فين؟

وأطرق الرجل برأسه، ولم يجب عن سؤالي.. كان يفكر تفكيرًا عميقًا.. ثم قال وهو ما زال مطرقًا:

– ما أعرفوش.

قالها.. بعد أن اتخذ قرارًا بينه وبين نفسه.. ألا يقول لي شيئًا أكثر من اللازم.. شيئًا لا يعرف مدى نتائجه.

وعدت أوضح للرجل ماذا أعني.. قلت له:

– "حسين علي" اللي قدم شكوى للحكومة في مصر، علشان ما تنزلوش القرية النموذجية.

وصمت الرجل تمامًا.. حتى سمعت أنفاسه واضحة تتردد داخل المقبرة.

وأقلقني صمته.. من يدري، ربما كان هذا الرجل بالذات يريد الهبوط إلى القرية النموذجية والسكنى فيها.

وسألته ببساطة.

– والّا أنت موافق على النزول في البنايات؟

ألقيت هذا السؤال من قبل على الأبله.. فهاج وجمع القرية كلها بصياحه، ولم أتعلم مما حدث.. ظننت أن الأبله قد هاج لأنه أبله.. ولكن هذا الرجل أقنعني تمامًا بأني أرتكب خطأ قاتلاً بتوجيه هذا السؤال لأي إنسان في الجبل.

fb/mashro3pdf

نسى الرجل أني ضيفه، وتخلص فجأة من حذره وخرج من تفكيره العميق في أسئلتي التي لا يجيب عنها، ونظر إليّ نظرة مفترسة، ومد يده إلى صدري وقبض على رباط عنقي بشدة. وجذبني إليه حتى اقترب وجهي من وجهه ونحن واقفان داخل المقبرة.. وقال في صوت خفيض حازم:

– لو نزلنا البنايات ح نخطف الأفندية اللي زيك. ح نختفي في الجبل ونضرب في السياح.. محدش منكم يعتّب هنا.

كان إنذارًا واضحًا حاسمًا.. أحسست به في عنقي.

ورفع الرجل يده عني.. وقد بدا أمامي كمارد مخيف.. عفريت من عفاريت المقابر.

وأسرعت بالخروج فلحقني إلى الخارج ونظر إليَّ وكأنه لم يمسك بخناقي منذ لحظة، وصمم على دعوتي لمشاهدة كهفه الذي يسكنه، وليقدم لي الشاي.

***

كان كهفه بلا نقوش.. كانت أطباق جميلة من القش الملون هي التي تزين الحائط، ورأيت زوجته في ملابسها السوداء ومعها صبية في جلباب مزركش تقفان خارج الكهف تنظران إلينا في صمت.. والصبية قد صففت شعرها في ضفائر كثيرة قصيرة منسدلة على جبينها.. نفس تسريحة الشعر الفرعونية التي أراها في صور الملكات.

كان جمال الصبية مثيرًا، لا أستطيع أن أصف هذه الصبية بأنها جميلة كالقمر، أو رقيقة كنسمة الربيع.. أصدق ما توصف به.. أنها حنون كالأرض الخضراء، فائرة كشمس الصيف، نبيلة كملكة فرعونية.

fb/mashro3pdf

ونظرت إليَّ الصبية بعينين لا تعرفان الخجل، ولكنهما تعرفان الحياء.. كانت تنظر في دهشة، ولكنها لا تنظر خلسة عيناها صريحتان يخرج منهما بريق أسود حزين.

وأشار مضيفي إلى الأطباق، وقال لي إن ابنته هي التي صنعتها بيديها، وأنه يفخر بمهارة ابنته، فكلما ازدادت أطباقها كلما زادت فرصتها في الزواج، وأقبل عليها الخطاب من شباب أهل الجبل.

وأيقنت أني لو كنت شابًا من الجبل لما ترددت لحظة في التقدم لخطبة هذه الصبية.. ترى هل كانت ترضى بي؟ مَن فتى أحلامها؟ مَنْ الذي ترضى أن تمنحه جسدها الحنون وهي فرحة نشوانة؟

إني عاجز تمامًا عن معرفة مشاعر المرأة على حقيقتها هنا.. في الجبل.. لا شك أن لغة عواطف الأنثى في هذا المكان، تختلف تمامًا عن لغة عواطف الأنثى في المدينة الكبيرة التي أعيش فيها.. في القاهرة.

يخيل لي أن الصبية لم تنظر إليَّ أبدًا على أني رجل، من الممكن أن تقوم بينها وبينه علاقة عاطفية، أعتقد أنها عاملتني بينها وبين نفسها كحيوان غريب، أو مخلوق شاذ، كتلك المخلوقات العجيبة التي تأتي في صورة سياح وتتطفل على مقابر أجدادها الفراعنة.

ولم أجد في الكهف غير الأطباق القش، وسرير حجري ضخم تحته موقد للنار، وسلة في أحد الأركان وصندوق خشبي ضخم لا أدري من أين أتوا به، وجلست أنا ومضيفي فوق الصندوق. بينما تقدمت الزوجة وصنعت لنا الشاي وأفرغته في أكواب صغيرة أعطتها لابنتها لتقدمها لنا.

fb/mashro3pdf

وفوجئت بصبي صغير يدخل علينا وهو يقود حمارًا.. دخل الحمار الكهف فاستقبلوه باهتمام كبير، وأسرعت الصبية تقدم له العلف بعد أن ربطته في أحد الأركان.. إنه واحد من أسرتهم، يعيش معهم ويأكل وينام تحت نفس السقف الذي يأكلون وينامون تحته.

ونظر مضيفي إلى الحمار.. ثم نظر إليَّ وبدأ يشرح لي كيف أن مهندس القرية النموذجية يريد منهم أن يتركوا دوابهم بعيدًا عن بيوتهم، وقال في تأثر:

— الواحد منا ينام بعين مغمضة وعين مفتحة على حمارته والا بهيمته.. كيف أنام والحمار بعيد عني.. مين يحرسه.. المهندس.. والله ما كانت تمر عليه ليلة إلا وألاجيه مسروج.

وتدخلت الزوجة في الحديث، وذهلت وأنا أستمع إلى نقد فني توجهه إلى هندسة مباني القرية النموذجية، إنها غير راضية عن القباب التي صنعها المهندس في البيوت، فهي لا تعرف القبة إلا في ضريح ولي الله، وهو مقبرة، فلماذا يصر المهندس على إسكانهم داخل مقبرة، إنها لم تمت بعد، حتى تدخل بيتًا له قباب.. ستعيش حياتها هنا في الكهف، وإذا أرادت الحكومة أن تنقلها إلى بيوت المهندس، فلتنقل جسدها بعد أن يدركها الموت، وتدفنها في تلك البيوت.. لا مانع عندها أبدًا أن تكون القرية النموذجية مقبرة لأهل الجبل.

وكان منطق المرأة قويًا، فهي صاحبة البيت كما يريد لها المهندس، لماذا إذن لم يستشيروها في رسم البيت الذي ستسكنه؟ كيف يطلبون من

fb/mashro3pdf

زوجها أن يوقع على وثيقة البيت، وهي تنفر من شكله وتتشاءم من السكنى فيه؟ إن المساكن لا تُفرض على أصحابها، وإلا تحولت إلى سجون.. وهي لم ترتكب ذنبًا أو إثمًا حتى يحكم عليها بالسجن.

وأشارت المرأة إلى ابنتها التي كانت تجلس صامتة، وقالت في أسى: إن هذه الصبية وابنها الصغير والحمار يتعبون كل يوم عندما يقومون برحلتهم الطويلة اليومية لينقلوا الماء من النهر إلى الجبل.. وكان بودها لو نقلت الحكومة الماء لهم بالأموال التي أنفقتها في بناء هذه القرية التي لن يسكنها أحد.

وكنت قد فرغت من شرب الشاي.. وتدخين سيجارة "أبو غزالة" قدمها إليَّ مضيفي، فنهضت مستأذنًا للذهاب إلى العمدة الذي ينتظرني، وودعتني الزوجة قائلة:

- اتكلمنا كتير يا أفندي مع رجالة زي حالاتك. ولا شفناش حاجة.. المهندس لسه جاعد في البنايات غرضه ينزلنا بالعسكر.

وتحطمت مقاومتي أمامها.. فقلت لها في حماس دون أن أدري خطورة ما أقوله:

- إن شاء الله مش ح تنزلوا البنايات وتفضلوا هنا زي ما أنتم عايزين.

وخرجت من طبيعتي كمحقق، وأصدرت حكمًا في القضية وأنا لا أملك الحكم فيها، ولم تفرح المرأة بكلامي، ربما اعتادت سماع وعود

fb/mashro3pdf

كثيرة من "الأفندية" ولا تتحقق هذه الوعود. كفاها أنها شرحت لي أفكارها. ولأفعل أنا والحكومة التي انتدبتني - بعد ذلك - ما نشاء.. إنها مصرة ألا تسكن القرية النموذجية حتى الموت.

ووجدت العمدة على الأريكة يرقبني وأنا قادم مع مضيفي، وأفسح لي مكانًا إلى جانبه، وتركنا مضيفي وحدنا ليتيح للعمدة فرصة شرح قضيتهم لي:

وبدأ العمدة حديثه في هدوء:

- شوف يا ابني.. أنا لا يهمني المهندس.. ولا الحكومة ولا الملك كمان.

وتلفت حولي في جزع، كأن هناك من يتجسس علينا.. إن تحدي الملك علنًا على هذا النحو، قد يؤدي إلى رفتي من وظيفتي، وربما قبضوا علينا وألقوا بنا في السجن، أنا والعمدة.

- بلاش الكلام ده يا عمدة.

فصاح بأعلى صوته

- أنا ما أخفش من حد.. أنا جلت الكلام ده جدام الأميرة أخت الملك.

وسألته في لهفة وحذر:

- قلت للأميرة إيه؟

وربت العمدة بيده على كتفي قائلاً:

- صبرك بالله، أنا ح أجولك على كل حاجة.

fb/mashro3pdf

وروى لي العمدة ما حدث بينه وبين الأميرة.

لقد قامت بينهما معركة.

كان ذلك عندما فرع المهندس من بناء أهم مباني القرية. والجامع والمدرسة والسوق والخان وبيت العمودية وأحد الأحياء الخاصة بسكن الأهالي.

وقرر المهندس افتتاح القرية وإقامة حفل كبير تحضره وتشرفه الأميرة، ويستقبلها أهل الجبل، ويشكرون لها زيارتها لهم وفضلها وفضل شقيقها الملك عليهم، ببناء القرية الجديدة لهم.

وفي صباح أحد الأيام، جاء المقاول كرسول من المهندس ليبلغ العمدة بنبأ الحفلة، ووافق العمدة على أن يقابل مع أهل الجبل الأميرة، ويرحبون بها، وتساهل العمدة، فرضى أن يهبط مع رجاله إلى القرية النموذجية وألا يشترط – كما كان يود في قرارة نفسه – أن تصعد الأميرة إليهم في جبلهم وتزورهم في مساكنهم، وكان العمدة يرى أن زيارة الأميرة فرصة حسنة ليشرح لها موقف أهل الجبل من القرية النموذجية دون أن يهتم بأن الحفلة أقيمت من أجل القرية النموذجية وإتمام بنائها.. كان العمدة يؤمن أنهم على حق، وأن أي كلام يقوله للأميرة، سيصلح في الحال الظلم الواقع عليهم، وسيزيل خطر التهديد بنقلهم من الجبل.

وجاء صباح يوم الاحتفال، وقد أعد العمدة رجاله الذين سيرقصون بالعصي أمام الأميرة، واستعد مغني الجبل مع فرقته المكونة من عازف

fb/mashro3pdf

الزمار وعازف الأرغول والضارب على الدف.. ليؤدوا أدوارهم الغنائية أمام الأميرة.

وذهب بعض الرجال إلى القرية النموذجية، يستطلعون ما يقام فيها من استعدادات، وإذا بهم يفاجأون بسيدات منتشرات في القرية، يلبسن ملابس بيضاء.. ومعهن قوة من رجال البوليس.

وأمرت السيدات رجال البوليس، بأن يقبضوا على القادمين من أهل الجبل، ويدخلوهم في حمام أعد لهم حيث قاموا بغسلهم بالماء والصابون كما تغسل الجياد، ثم أخرجوهم من الحمام وقد رموا ملابسهم، وأعطوهم " جلاليب " جديدة.. ذات لون واحد - هو اللون الأبيض - حتى أصبح الرجال وكأنهم فرقة أخرى من فرق العساكر ترتدي الجلاليب.

وانتقل النبأ بسرعة إلى أهل الجبل.. واعتبروا ما حدث لزملائهم إهانة كبرى.. بأي حق يجبرونهم على الاستحمام، وكيف يستهترون بهم، فيلقون بملابسهم، ويعطونهم ملابس أخرى لها لون واحد، حتى أصبح منظرهم مثيرًا للزراية والشفقة؟

وصمم أهل الجبل على عدم حضور الحفل.. حتى يوفروا على أنفسهم عملية التعذيب التي سيمرون بها من أجل استقبال الأميرة.

وعرف المهندس بما اعتزمه أهل الجبل، فثار وكاد يجن جنونه.. إنها كارثة أن تحضر الأميرة فلا تجد من يرحب بها ويهتف باسمها، ويرقص أمامها، ويغني لها الأناشيد، كيف يجرؤ الأهالي على ارتكاب مثل هذه الحماقة.. لابد من إرسال فرقة من العساكر لتأديبهم وإحضارهم بالقوة.

fb/mashro3pdf

وصدرت الأوامر فعلاً للمعسكر بالتقدم نحو الجبل، وإلقاء القبض على أهله جميعًا، رجالاً ونساء وأطفالاً، والهبوط بهم إلى القرية، وإجراء عمليات الاستحمام واستبدال الملابس لهم، ثم إصدار الأوامر لهم بالهتاف والغناء والرقص عند حضور الأميرة.

وتحرك العسكر نحو الجبل.. بينما تجمع أهل الجبل وقد حملوا السلاح، استعدادًا لمقاتلتهم.

وأدرك العسكر من تجمعات أهل الجبل، أنهم سيواجهون مقاومة كبيرة، وأسرع الضباط والمهندس يتشاورون.

إن حدوث معركة تسفر عن قتلى وجرحى يوم زيارة الأميرة أمر غير مرغوب فيه، سيؤدي إلى أوخم النتائج بالنسبة للجميع، لا مفر إذن من تفادي المعركة.

وصدرت الأوامر للعسكر بالانسحاب.. فعادوا إلى القرية النموذجية.. وبقى المهندس يشد شعر رأسه باحثًا عن طريقة يستقبل بها الأميرة بحشود من الهاتفين المرحبين.

وتدخل ضباط العسكر بفكرة وجيهة.. لماذا لا يحضرون فرقة كبيرة من فلاحي أحد الباشوات في حقول الشاطئ الشرقي يعبرون النيل إلى القرية النموذجية، بعصِّيهم وخيولهم ومزاميرهم.. ويستقبلون الأميرة استقبالاً ضخمًا على أنهم أهل الجبل؟

ورحبوا في حماس بالفكرة، وكانت هي المخرج الوحيد للمأزق الذي يواجهونه.

fb/mashro3pdf

وعملت اللوريات والمراكب، في نقل الفلاحين، حتى امتلأت بهم القرية.. وتضاعف عدد العسكر، خشية نشوب صراع دموي بين أهل الجبل الحقيقيين، وأهله المزيفين.

وجاءت الأميرة، وارتفعت الهتافات، وبدأ الرقص والغناء وكان العمدة في تلك اللحظة، يرقب في تحفز مع أهل الجبل، ما يجري هناك عن بعد في القرية النموذجية.

كان الجميع يلحون على العمدة أن يعطي إشارة بدء الهجوم ليزحفوا إلى القرية النموذجية، فيقبضوا على كل من فيها، ويحرقوها ويدمروها تدميرًا.

ولكن العمدة رفض كل مطالبهم.. وجلس القرفصاء يفكر تفكيرًا متصلاً وهم من حوله ينتظرون، ثم وقف العمدة فجأة، وقال لهم:

- أنا رايح للأميرة.. لوحدي.

وارتفعت صيحات الاحتجاج والمعارضة من حول العمدة، ولكنه رفع صوته مزمجرًا معلنًا أنه اتخذ قرارًا لا رجوع فيه وأنه يأمرهم بالتزام السكون، حتى يذهب ويقابل الأميرة ويعود.

ثم انطلق العمدة في طريقه نحو القرية النموذجية.

كانت القرية النموذجية في حالة هستريا.

الأميرة سكرانة، وحولها خمسة من الشبان الأمريكيين، ومعهم المهندس وبعض رجال الآثار، وسيدات الجمعيات النسائية، اللاتي أشرفن في الصباح على غسل الفلاحين بالماء والصابون، وإلباسهم الجلاليب البيضاء الجديدة.

fb/mashro3pdf

وكانت السيدات في ملابس السهرة، فبعد أن فرغن من عملهن، عبرن النيل إلى "ونتر بالاس"، حيث أبدلن فساتين السهرة، بملابس العمل البيضاء، وتعطرن وتزينَّ، وعدن مسرعات للترحيب بمقدم الأميرة.

أما الفلاحون، فكان يبدو عليهم الإعياء الشديد، لقد أحضروهم على عجل من حقول الشاطئ الشرقي. وبعد أن فرغوا من الاستحمام وارتداء الجلاليب، صدرت إليهم الأوامر بالجلوس القرفصاء. في صفوف طويلة، وقد وقف عليهم العسكر يحرسونهم، ويمنعونهم من التحرك، لا يستطيع واحد منهم أن يجلس خشية أن تتسخ ملابسه بتراب الأرض، ظلوا جالسين القرفصاء ثماني ساعات أو أكثر، بلا طعام ولا شراب كأنهم دمى خشبية.. حتى أقبلت الأميرة في المساء، بموكبها الأمريكي. فانتفض الفلاحون صادعين للأوامر، وانطلقوا يهتفون ويضجون ويرقصون ويصفقون.. كانت حركاتهم مبالغًا فيها، لا من أجل عيون الأميرة، ولكن لتعويض الساعات الطويلة التي قضوها بلا حراك.. كانوا ينفِّسون عن أنفسهم ويفرجون عن الكبت الذي عانوه وهم جامدون كالتماثيل فانطلقوا صارخين ملوحين، كأن شيئًا يتفجر في داخلهم.

ونظرت الأميرة إلى أصدقائها الأمريكيين فوجدتهم في ذهول من الاستقبال الحماسي.. ففرحت لذهولهم، وأمرت تابعها الذي يقف وراءها، فصبّ لها الويسكي من "ترموس" يحمله معه، وشربت في نهم، وهي تتخيل نفسها في مغامرة عجيبة في أدغال وسط أفريقيا.. والفلاحين هم الزنوج الذين تراهم في أفلام طرزان.

fb/mashro3pdf

والتفتت الأميرة إلى الشاب الأمريكي الذي يجلس إلى يمينها وقالت له في انفعال بالإنجليزية:

– إني لست خائفة.. لا أظن أنهم من أكلة لحوم البشر. فأجابها الأمريكي ضاحكًا:

– أرجو أن يتحقق ظنك.

فبان التردد على وجه الأميرة.. وتلفتت حولها ثم همست في أذنه قائلة:

– على أية حال، نحن في حراسة قوية.

وهتف الأمريكي على شمال الأميرة:

– إنها ليلة مثيرة حقًا. هل توجد في هذه المنطقة حيوانات مفترسة؟

فقالت الأميرة على الفور لتطمئن نفسها:

– إن الأسود لا تقترب من هذه الضجة.

وكان الفلاحون، قد بدأوا رقصًا منتظمًا بالعصيّ في حلقات متناثرة في ساحة القرية، ووسط هذه الحلقات ركب بعض الفلاحين الخيل، يرقصون بها على أنغام المزمار والأرغول.

واقترب المهندس من الأميرة، وقال لها بالفرنسية:

– أرجو أن تكون سمو البرنسيسة راضية عن هذه الليلة، فتلفتت الأميرة إلى أصدقائها، ثم قالت:

– إن أصدقائي مسرورون جدًا، وأنا أيضًا مسرورة.

وفجأة ارتفعت ضجة في أحد أركان الساحة، وشوهد عساكر كثيرون يجرون نحو مكان الضجة، ووقف الأمريكيون في فزع، بينما تصلبت

fb/mashro3pdf

الأميرة على مقعدها لا تقوى على الحراك وجرى المهندس يستطلع الخبر.. وتوقف الفلاحون عن الرقص وساد المكان صمت رهيب.

كان عمدة الجبل يريد اقتحام الساحة، ومن حوله العساكر يمنعونه، ولكن الرجل العجوز قاومهم كالطود، لم يتزحزح من مكانه، وهو يزأر في الرجال الذين يعترضونه.

– أنا جاي أجابل الأميرة.. متجريش لأضربك.. والله أضربك.

كان العمدة يلوح بيده، متوعدًا من يمسه بضربه، وعيناه صارمتان ترسلان بريقًا من اللهب.

وعاد المهندس يلهث، وقد تذكر أنه ترك الأميرة بغير استئذان.. وانحنى أمامها قائلاً بالفرنسية:

– إني آسف يا سمو البرنسيسة.. إن الرجل العجوز عمدة الجبل.. يريد إزعاج سموك بالحديث إليك.

فقاطعه أحد الأمريكيين في مرح:

– ولماذا لا يأتي.. إنه شيء مسلٍ أن نتحدث إلى واحد من هؤلاء المخلوقات.. هل هو الزعيم؟

فأجاب المهندس مترددًا:

– نعم إنه الزعيم.. ولكنه رجل ماكر.

فصاح الأمريكي في مرح:

– كزعيم الهنود الحمر عندنا.. أحضروا بعض الخرز وقطع السكر قدموها هدية له.. إنه سيفرح بها جدًا.

fb/mashro3pdf

وابتلعت الأميرة كأسًا أخرى من الويسكي وأمرت بإحضار العمدة إليها.

كانت الخمر قد أذابت أفكار الأميرة، فاختلط الخيال بالواقع في رأسها.. لم تكن تعرف بالضبط، في أي مكان هي ولا المناسبة التي جاءت بها إلى هذا المكان.. كل ما تحسه، هو أن شيئًا مثيرًا جديدًا يدور حولها، وأن الضجة والصرخات والرقص والخيل.. كل هذه الأشياء تحرك الملل الكامن في داخلها، وتثير في جسدها نشوة جديدة، نشوة تنطفئ مع الفجر ويحل مكانها ملل جديد.. ملل ثقيل.. يبحث عن مغامرة جديدة ونشوة جديدة.

ورأت الأميرة صورة العمدة في جسمه الطويل الأسطوري وهو يتقدم منها، محاطًا بالمهندس وبعض العساكر، بينما صدرت الأوامر باستئناف الرقص في الحال.. ووقف الأمريكيون ينظرون في ترقب يشوبه الحذر والقلق، واتجه العمدة إلى الأميرة، ومد يده إليها، وقبض بها بقوة على يدها وشد عليها بقوة سرت معها رعشة أحست بها الأميرة في ذراعها وفي ارتجاج ثدييها، وفي تقلص بطنها.. وسرت الرعشة كالكهرباء في ساقيها.

وابتلعت الأميرة كأسًا أخرى في جوفها.. وقالت ضاحكة بالفرنسية:

– دعوه يجلس إلى جانبي.

كانت الرعشة التي سرت في جسد الأميرة، سببًا لإعجابها بالعمدة..

fb/mashro3pdf

بالرجل، كانت تنظر إليه ولا تراه.. كانت تتخيله.. قوة من الرجولة لم تعرف لها مثيلاً من قبل.

وتحولت الأميرة إلى أنثى.. أطلقت ضحكات ناعمة لينة، وبرزت ثنايا جسدها.. وتراخت على مقعدها، واكتست عيناها بغشاوة من الرغبة الناعسة.. ومدت أطراف أناملها تداعب بها ذقن العمدة وهي تقول له بالفرنسية:

– آه.. يا فارسي الجميل.

وشعر العمدة بزهو الرجل العجوز، الذي تداعبه صبية صغيرة حسناء، وضحكت عيناه، وانفرج فمه عن ابتسامة كشفت عن أسنانه الصفراء.

وقال أمريكي للأميرة في لهفة:

– يبدو أنه من آكلي لحم البشر.

فأجابت الأميرة بضحكة عصبية:

– لا شك أنه يريد أن يأكلني الليلة.

وقال أمريكي آخر:

– يبدو أنك لا تمانعين.

فصاحت الأميرة:

– أبدًا.. أبدًا.. فليأكلني هذا الفارس الجميل.

ومدت يدها تداعب عمامة العمدة.

فتراجع العمدة برأسه ونبهه عبث الأميرة بغطاء رأسه.. إلى وقاره وكرامته فتنحنح وقال مواجهًا الأميرة بصوت جريء.

fb/mashro3pdf

- اسمعي يا أميرة.. جولي لأخوكي الملك.. إحنا موش آثارات إحنا منتجلش من الجبل.. إحنا كبرنا وبجينا زي السجر. وإن انتجلنا نموت.

و لم تفهم الأميرة سوى كلمة "أخوكي الملك" فسألته في دهشة:

- أنت تعرفه؟

فأجابها العمدة وهو يزفر في أسى:

- الكبارات إن جم هنا.. يشوفوا الآثارات ولا يشوفوناش.. والتفت العمدة ناحية المهندس وقال مشيرًا إليه:

- والراجل ده بيضربنا.. والبنايات دي متنفعناش.. الراجل ده نصاب.. والرجالة اللي بيرجصوا موش رجالتنا جابوهم من الشط الشرجي.. دول فلاحين يا أميرة.

و لم تفهم الأميرة أيضًا سوى أن المهندس "نصاب" وأعجبت الأميرة بالكلمة.. فأشارت إلى المهندس، وقد طفرت الدموع من عينيها من الفرح وهي تصيح بالعربية:

- أنت نصاب.. بيقول أنت نصاب.. لازم يموتوك ويكلوك علشان أنت نصاب.

وسأل أكثر من واحد من الأمريكيين في فضول:

- ماذا يقول.. ماذا يقول؟

كانوا ينظرون إلى العمدة كمعجزة.. أو كلعبة غريبة، تصدر عنها حركات وكلمات عجيبة، وكانوا لا يريدون أن يفوتهم شيء مما يصدر عن هذه اللعبة.

fb/mashro3pdf

وقالت الأميرة لأصدقائها ضاحكة:

- سنشاهد الآن منظرًا فريدًا.. إن العمدة يقترح أن يأكل المهندس.. ما رأيكم؟

وصدقها الأمريكيون.. وضحكوا في انفعال وهم يكتمون انزعاجهم بصعوبة.

واستأنف العمدة يشرح مشكلته.

- كيف نعيش في البنايات.. ح ناكل كيف.. دا عملها جبب "قباب".. والجبب ما يرجدش تحتها إلا الأموات.. وعامل لبهايمنا غرف، وإحنا سلونا ننام جنب بهايمنا.. ما نستريحش إلا لما الواحد ينام ويشوف بهيمته نايمة جصاده والا نسيبها تتخطف وإحنا ماندراش.. وجال بيجول انزلوا جنب اللمبة.. لكن كيف ناكل.. لا زرعة نزرعها ولا شغلة نشتغلها. نبعد عن الآثارات، وعيشتنا على جرشين ناخدهم من السواح.. وادحنا بنحرس الآثارات والا نسيبها للأشرار والمجرمين.. دا جبل يا أميرة.. بلاش كلامي أنا.. الست الفرنساوية تجولك.. ست طيبة بتجطر في عينين العيال.. كلميها.. شوفي جالت آه.. جالت عايزين ينزلوكم تحت علشان يفرجوا عليكم كبارات البلد والسواح.. ويجوللهم إحنا مدنّاهم.. وإحنا في الحجيجة موش لاجيين ناكل.

كانت الأميرة وأصدقاؤها ينظرون إلى العمدة وهو يتكلم ويشير بيديه في حماس وكأنه راقص "باليه"، أو ممثل في تراجيديا صينية غير مفهومة.

وطوقت الأميرة عنق العمدة بذراعها اليمنى، وصاحت:

fb/mashro3pdf

- برافو.. مدهش.. تشرب واحد ويسكي؟

وعرف العمدة أنها تريد أن تقدم الخمر له.. وأحس بغريزته أنها تسخر منه.. واجتاحته ثورة الغضب، فوقف وأمسك بكتفيها، والجميع في ذهول، تجمدوا في أماكنهم لا يتحركون لإنقاذ الأميرة.

وصاح العمدة غاضبًا:

- البنايات دي للمسخرة وشرب الخمر يا أهل جهنم.. تيجي ومعاكي شنطة ومراية تعلجيها في الحيطة، وتنامي ليلة وتمشي.. إحنا مانجعدش فيها يا كفرة.. يا جلالات الدين.

ثم ترك العمدة كتفي الأميرة.. ونظر إلى المهندس متحديًا وقال منذرًا متوعدًا:

- رجالتك لو جعدوا هنا الليلة.. ح نضرب فيهم.. وح يصير بينا وبينك دم.

وانطلق العمدة في طريقه خارج الساحة.. والأميرة تسأل في خوف بالفرنسية:

- ماذا يقول.. لماذا هو غاضب؟

وأدرك المهندس، أنه لو طلب من العسكر القبض على العمدة في الحال ستدور معركة رهيبة والأميرة ما زالت في القرية، إنهم ولا شك محاصرون بأهل الجبل، يتحفزون للوثوب عليهم في أية لحظة.

وهمس المهندس في أذن أحد الأمريكيين:

- أرجو أن تنسحبوا مع الأميرة.. إن الموقف خطير.. ووافق الأمريكي بسرعة، وتشاور مع أصدقائه.. ثم أقنعوا الأميرة

fb/mashro3pdf

بالانسحاب.. وانفض الحفل.. ولجأ الجميع إلى شاطئ النيل، كفلول جيش مدحور يهرع رجاله إلى العربات والمراكب للفرار في أسرع وقت.

و لم يبت أحد تلك الليلة في القرية النموذجية.. حتى المهندس صحب الأميرة إلى "ونتربالاس"، وقضى ليلته هناك.

***

كان العمدة يروي لي قصته مع الأميرة فأتخيل ما حدث، وتدور في رأسي الصور والمرئيات وأزداد احترامًا للرجل الذي أجلس إلى جواره، وأشعر برهبة نحوه، لم أشعر بها نحو إنسان آخر في الوجود.

كنت أقول لنفسي لو سألني أحد: ما هو تعريف الرجل الحقيقي في هذا العالم.. لأجيبه على الفور.. إنه عمدة هذا الجبل.

وغمرني إحساسي بالقرف من مهمتي، ما هذه السخافة التي جئت من أجلها؟ ماذا أستطيع أن أفعل في مشكلة من هذا النوع؟ ماذا يريد مني مدير التحقيقات؟ إنه في الحقيقة لا يريد شيئًا على الإطلاق.. كل ما يريده هو أن يأخذ الروتين مجراه.. شكوى قدمها رجل اسمه "حسين علي" من أهالي الجبل، يعلن فيها أن أهل الجرنة لا يريدون النزول إلى القرية النموذجية.. ويعلن عن وجود سرقات واختلاسات في مواد بناء القرية.

إن واجبي كموظف حكومة، وكمفتش للتحقيقات، هو أن أستدعي "حسين علي" وأسأله، تلك الأسئلة الخالدة في كل تحقيق، ما اسمك وما عمرك، وما هي صناعتك، وما هي تفاصيل شكواك.. وعليَّ بعد ذلك أن أطلب انتداب بعض المفتشين الإداريين لتشكيل لجنة لجرد عهدة القرية

fb/mashro3pdf

النموذجية، وعلى هذه اللجنة أن تقرر ما إذا كان هناك اختلاس أم لا، فإذا لم يكتشفوا اختلاسًا قرروا حفظ الموضوع وسجلت إدارة التحقيقات انتهاء التحقيقات في إحدى القضايا.. وانتهت دوشة الدماغ، على الرغم من بقاء المشكلة الحقيقية كما هي.

أيقنت أني لا أقوم بتحقيق، أني أقوم بتزوير مشاعر العمدة ومشاكل أهل الجبل، ومتاعبهم التي يعانون منها، وفقرهم الذي يقاسون منه، وأملهم الذي يبحثون عنه في بطن الجبل.. إن مهمتي كمفتش للتحقيقات، هي طمس كل هذه الحقائق، وتحويلها إلى مجرد أسئلة سخيفة، يجب أن أراعي فيها – بكل لباقة – عدم الدخول في التفاصيل، التي تمس الأميرة، والنقد الذي يوجهه أهل الجبل إلى القرية النموذجية كمشروع يحظى برعايتها.

تخيلت مدير التحقيقات، وهو يقرأ في المذكرة التي أقدمها له عن التحقيق.. أن الحكومة أقامت المشروع وأنفقت عليه الأموال، دون أن تفكر في عمل يقوم به أهالي الجبل بعد نزولهم إلى القرية.

سترتجف يد المدير وهو يمسك بالمذكرة، وسيقول لي ساخرًا:

– أنت عامل مصلح اجتماعي والا إيه.. دا موش شغلك يا أستاذ.. أنت تحقق في التهم الموجهة بس... فيه اختلاس والا مفيش.. دي كل مهمتك.. إحنا ما لنا ومال إن كان فيه شغل والا مفيش.. روح غيّر المذكرة دي.. والا اكتب واحدة ثانية، أنا ح أقطّع المذكرة دي.. لحسن نترفت كلنا وتبقى مفيش حاجة اسمها إدارة تحقيقات.

ثم سيمسك المدير بيدي ويقرب فمه من أذني ويهمس قائلاً:

fb/mashro3pdf

– لو وكيل الوزارة شاف المذكرة دي.. ح يقول عليك شيوعي.

وسأفزع ولا شك من هذه التهمة.. لأني لا أريد أن يقبض عليّ، وأقضي بقية حياتي في السجن، وسأكتب مذكرة أخرى خالية من كل الحقائق التي لمستها، والتي أشعر بها محفورة في قلبي، وسأشم بعد ذلك رائحة عفن تتصاعد من داخلي.. رائحة ضمير ميت.

وخرجت من أفكاري على صوت العمدة يقول لي في صوت أبوي:

– مالك يا ابني.. أنت تعبان.. السمس غابت ولا كلتش لحمة.

كان يكلمني في حنان غريب.. حنان مفاجئ.. كالزرع الأخضر الذي ينبت بغتة وسط الرمال والصخور الجافة المحيطة بنا.

وأشار العمدة بيده، والتفتُّ ورائي إلى حيث يشير، فوجدت امرأة تتقدم منا، تحمل بين يديها "مشنة" عليها الطعام.. وكانت قد جاءت به، وقبعت في مكانها في انتظار إشارة العمدة.

وأكلت مع العمدة، العدس والجبن والبرتقال.. أكلت في نهم، دون أن أفكر في قذارة الطعام، أو في الصدأ الذي يلصق بالصحون.

وشاع المرح في حديث العمدة.. سألني وهو يجول بأصابعه في طبق العدس.

– أنت متجوز؟

– لسه يا عمدة.

فصاح العمدة:

– وإيه اللي معطل حالك.. مستني لما تكبر والصبايا الزين متطلّش في وشك.

fb/mashro3pdf

فسألته بدوري:

- وأنت متجوز يا عمدة؟

فرفع يده إلى السماء وقال:

- كتير.. كتير يا ولدي.

- كام واحدة اتجوزتها؟

فنظر العمدة إلى الأفق.. ليتذكر عدد زوجاته، ثم عدل عن التفكير وقال في يأس بعد أن استعصى عليه الحساب:

- كتير.. كتير.

- وآخر واحدة اتجوزتها؟

فتنهد العمدة في أسى:

- الله يرحمها.. ماتت صغار.. وبعديها متجوزتش.

- ماتت ليه.. كانت عيانة؟

فتردد قليلاً ثم قال:

- عمرها ما مرضت.

وسكت العمدة ولم يضف إلى كلامه شيئًا.. وتركني نهبًا للخواطر.. هل قتلت؟ أم ماتت في حادث؟

ونظرت إلى العمدة، فرأيت وجهه ساهمًا لا يريد الإفصاح عن شيء.

وضايقني أني أزعجه، إن طبيعتي كمحقق ما زالت تلازمني وتدفعني إلى توجيه الأسئلة والإلحاح فيها.. حتى أصبحت أقتحم نفوس الناس، وأتطفل على مشاعرهم، حتى وأنا أشاركهم الطعام.

fb/mashro3pdf

إن العمدة يناديني "يا ولدي" لأنه لا يستطيع أن يعاملني معاملة رسمية، فهو يقسم الناس إلى غرباء وأصدقاء، أعداء وأقارب.. ناس يكرههم وناس يحبهم.. عواطفه ومشاعره مدربة على معاملة البشر لا الموظفين.. مجتمعه الذي يعيش فيه لا يعرف المجاملات والتقاليد الاجتماعية.. إنه يمنحني الآن قلبه.. ويظن أني أمنحه قلبي.. ونحن نتشارك العيش والملح معًا في طبق واحد.. ومع ذلك، هاأنذا عاجز عن الارتفاع إلى المستوى الذي يعاملني به العمدة.. ما زلت لا أعرف كيف أتخلص من هذا الموظف المحقق الذي يكمن داخلي.

وفرغنا من الطعام، وقمنا ومشينا في اتجاه الكهوف.. وأنا أفكر بيني وبين نفسي في طريقة لبقة أسأل فيها عن "حسين علي" دون أن أشعره، بأني مفتش التحقيقات.. وما زلت صديقًا له.

وعلى امتداد الأفق رأيت على الضوء الشاحب بعد الغروب حلقتين كبيرتين متباعدتين من الرجال والنساء.. الرجال وحدهم، والنساء وحده.. وهم جميعًا يجلسون القرفصاء فوق الرمال.

ودققت النظر إلى الحلقتين البعيدتين، ولم أصدق ما رأيته إنهم يقضون حاجتهم.. إنهم الآن في التواليت.. في مراحيض الجبل.

ولم أستطع أن أمنع نفسي عن سؤال العمدة:

– بيعملوا إيه يا عمدة؟

فأجاب العمدة في بساطة:

– تعالى يا ولدي نجعدوا معاهم نتسامروا.

ووقفت في مكاني لا أتزحزح، كنت على استعداد لأن أصنع أي شيء،

fb/mashro3pdf

إلا أن أخلع بنطلوني، وأجلس مع الرجال أقضي حاجتي في حلقة سمر.
وقلت للعمدة مستعطفًا:
- اعمل معروف.. اعفني من الحكاية دي.
فضحك ملء شدقيه وصاح:
- أنا بضحك عليك.. إنتوا يا رجالة البندر متجدروش تعملوا زينا كده.
كان يضحك، وكأنه لا يكترث بشيء في هذا العالم.. وكانت ضحكاته تذكرني بأن الليل أقبل ولابد لي من العودة.
واستجمعت شجاعتي وقلت له:
- الوقت اتأخر يا عمدة.. وفيه حاجة لازم أكلمك فيها:
"حسين علي" فين؟
وردد العمدة في صوت خفيض:
- "حسين علي".. "حسين علي".
فقلت له لأشجعه على الكلام:
- اللي كتب الشكوى بالنيابة عنكم.
وواجهني العمدة قائلاً:
- إحنا اشتكينا كثير.
- لكن فيه شكوى كتبها "حسين علي".
- وأنت عايز إيه منه؟
- عايز أسأله عن الشكوى التي كتبها.
فهز العمدة رأسه في عجب وقال:

fb/mashro3pdf

– "حسين علي" لا يعرف جراية ولا كتابة.

وهتفت في فرح ولهفة:

– يعني "حسين علي" موجود.. ممكن أكلمه.

وأطرق العمدة برهة ثم قال:

– ما أعرفش هو موجود والا سافر.. استنى شويتين.. أناديلك مرته.

وتركني العمدة بالقرب من الكهوف الخالية.. وأسرع مبتعدًا في اتجاه حلقة النساء.. وسمعت صياحه مناديًا.

رأيت امرأة تخرج من حلقة النساء، وتتقدم ناحية العمدة وما كادت تقترب منه، حتى سألها بصوت عال:

– جوزك فين؟

فأجابت المرأة في هدوء:

– سافر.

– سافر فين؟

فقالت المرأة وهي تتقدم منا:

– راح الواحات.

– واحة إيه؟

– ما أعرفش.

– دانتو متجوزين من جمعة يا بت.. سافر كيف؟

– ما أعرفش.

fb/mashro3pdf

ورأيت المرأة عن قرب. صبية صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها. ملامح وجهها طيبة حزينة، لها شفتان غليظتان واسعتان، وجسم قصير نحيل.. إنها عروس.. عروس هجرها زوجها بعد أسبوع من الزواج، وسافر إلى واحة مجهولة.

وشعرت بالغيظ نحو "حسين علي" وقلت لها:

– وح يرجع امتى "حسين علي"؟

فأجابت بنفس النغمة الهادئة:

– ما أعرفش.

– وإنت موش زعلانة علشان سابك وسافر؟

و لم تجب عن سؤالي.. خيل إليّ أنها لم تفهمه.

والتفت العمدة إلي وقال:

– أجيب لك راجل تاني.

فقلت له:

– لا.. أنا عايز "حسين علي".

واحتج العمدة..

– كلتنا شاكيين المهندس.

فأجبته:

معلهش يا عمدة أنا لازم أرجع دلوقت.

وحاول العمدة أن يقنعني بقضاء الليلة معهم.. ووعدني بالاستمتاع إلى غناء ورقص طوال الليل، ولكني صممت على العودة.

fb/mashro3pdf

الفصل السادس

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

لم يفلح العمدة في إقناعي بالبقاء ليلاً في الجبل.. كان الظلام يحدق بنا في سرعة مخيفة، وكل الأشياء من حولي تغوص شيئًا فشيئًا في سواد معتم، فأحس بدافع ملح إلى مغادرة المكان في الحال.

لقد توطدت الصداقة والألفة بيني وبين العمدة، ولكن شيئًا لم يتوطد بيني وبين الجبل نفسه.. إنه موحش خشن لا أدري كيف أطمئن إليه وأستسلم إلى صخوره وكهوفه وسحاليه وعقاربه، طوال فترة الظلام.

وكانت زوجة "حسين علي" لا تزال واقفة تنصت إلى العمدة وهو يلح في بقائي.. ولعلها كانت ترحب مع العمدة ببقائي، أو لعلها - وهو الأغلب - وقفت تنتظر لتتأكد من انصرافي من الجبل.

كان شيئًا مريبًا يحوم حول هذه الزوجة الصبية التي تدعي أن زوجها هجرها فجأة بعد أسبوع من زواجه منها.. وهي في نفس الوقت تبدو قانعة مستسلمة، كأن ما حدث شيء عادي ومتوقع.

وخطر لي أنها تكذب.. ولكن لماذا تكذب.. ولماذا يكذب العمدة أيضًا.. إنه رجل صريح لا يخاف أحدًا.. ولا شك أنه لو كان يعرف "حسين علي"، وأنه في الجبل لناداه وقدمه لي.. إن العمدة لا يخشى مني شرًا.. فأنا هنا وحيد ليس معي أحد وفي حمايته.

والتفت العمدة إلى زوجة "حسين علي" وتقدم منها، وعجبت له وهو يهمس في أذنها بكلمات لم أسمعها انصرفت على إثرها المرأة على عجل.

fb/mashro3pdf

وعاد العمدة إليَّ وقبض على ذراعي ومضى بي إلى الأريكة التي كنا نجلس عليها وهو يقول:

- الشيخ طلباوي جاي هو وحمارته، تركب عليها وتوصلك لحد المركب.

وسألت العمدة في قلق:

- الشيخ طلباوي جاي معايا طبعًا.

فضحك العمدة:

- الشيخ طلباوي حيوصلك لحد البر الشرجي.. دا راجل متعلم في سيوط وعايش هناك مع مرته.. وبيجي يزور كل شهرين والا تلاته.. والليلة راجع لاسيوط.

ودهشت كيف لم أر هذا الشيخ في النهار، وكيف لم يسرع إلى لقائي وهو الرجل المتعلم بين أهل الجبل، وهو أقدرهم على الكلام والإفصاح عن شكواهم.. وطرأت لي فكرة قررت أن أنفذها عندما أنفرد بالشيخ طلباوي في طريق العودة.

وأقبل علينا شيخ معمم ومعه زوجة "حسين علي" وحمارة مسرجة تتقدمهما.

كان الشيخ لا يتجاوز الثلاثين من عمره، نحيفًا رشيقًا، أنيقًا في ملابسه، عمامته نظيفة تميل قليلاً على حاجب عينه اليمنى.. له عينان جذابتان ماكرتان، وأنف مستقيم، وشفتان غليظتان ولكنهما لا تؤثران في وسامة وجهه.. وكان يتكلم باللغة الفصحى.. وشعرت في الحال

fb/mashro3pdf

أنه يتباهى بنفسه على أهل الجبل.. ولمحت العمدة ينظر إليه في اشمئزاز صريح:

وما كاد الشيخ يفرغ من مصافحتي.. حتى قال له العمدة في صوت لاذع ساخر:

- مع السلامة يا ولد طلباوي.. يا عارك يا راجل.. غرضك تاخد أختك تخِّدم على مرتك في سيوط.

وأدركت على الفور أن زوجة "حسين علي" هي شقيقة الشيخ طلباوي.

وقال الشيخ طلباوي في ارتباك.. وباللغة العربية:

- انتهى الأمر يا عمدة.. لا داعي لإثارة المشاكل أمام البيه. و لم يرحم العمدة ارتباكه.. صاح فيه بقسوة:

- الفجر ما يعيِّبش الرجالة يا طلباوي.. مرتك تخدم على نفسها..

فقاطعه الشيخ في انفعال:

- يا عمدة جلت لك خلاص انتهينا.. هي تجعد هنا كما تريد.. وأنا أجعد في أسيوط كما أريد.

وعدل العمدة فجأة عن هجومه وقال له في لهجة الأمر:

- وصل الأفندي لحد الشط الشرجي.

فأسرع الشيخ يقول لي في تملق:

- هذا شرف كبير يا سعادة البيه.. أنا خدامك.

ومرة أخرى لمحت نظرات الاحتقار تشع من عيني العمدة. وتكاد تحرق جسد الشيخ طلباوي.

fb/mashro3pdf

وصافحني العمدة في شوق كبير، وساعدني على ركوب الحمارة وقد غلبه تأثر كبير لفراقي.. إن وجهه المليء بالغضون لا يخفي شيئًا من مشاعر قلبه، إنه على الرغم من مظهره الخشن الجاف.. مخلوق شفاف.

وسلم الشيخ طلباوي على شقيقته وودعها في برود.. ثم لكز الحمارة.. فانطلقت في طريق العودة، والشيخ يهرول إلى جانبي محاولاً أن يلائم بين سرعته وسرعة الحمارة.

ولما ابتعدت الحمارة حوالي مائة متر، التفت ورائي فرأيت العمدة ما زال واقفًا ينظر في صمت، ولوحت له بيدي ولكنه ظل جامدًا لا يحرك شيئًا، ومن خلفه تقف زوجة "حسين علي" صامتة جامدة هي الأخرى.. كأنهما تمثالان.

وتوغلنا في الطريق الصحراوي، وفي ظلام الليل، و لم أعد أسمع سوى دبيب الحمارة، ووقع أقدام الشيخ طلباوي على الأرض، وصوت الريح التي كانت تهب جافة قوية.

ووجدت الفرصة مناسبة لأتحقق من الفكرة التي طرأت لي عن الشيخ طلباوي.

سألته فجأة في سذاجة تامة:

– خطك اللي كتبت بيه الشكوى كان جميل قوي يا شيخ طلباوي.

وتهلل وجهه فرحًا.. لقد وقع في الفخ.. إنه كاتب الشكوى الموقعة باسم "حسين علي" الذي لا يعرف القراءة والكتابة.

ثم غاصت الابتسامة من شفتيه، وظهر القلق في عينيه.. أدرك بسرعة أنه فضح نفسه.

fb/mashro3pdf

وفتح فمه ليقول:

– العمدة هو اللي.

وقبل أن يكمل حديثه.. كنت أقول له بصوت عال يغطي على صوته، حتى لا أسمع إنكاره لكتابة الشكوى، ولأشجعه على التورط في الاعتراف.

صحت قائلاً:

– اسمع يا شيخ طلباوي.. أنا عارف إنك موش موافق على الشكوى.. وعلى العموم أنت ما لكش دعوة لأنك موقعتش عليها.

فانطلق في الكلام وهو يلهث:

– سيدي.. والله وأنا أقول لك الصدق. أنا على طول مقامي معهم، وكونهم أهلي، لم أستطع أن أقنعهم.. لقد ألحوا عليَّ فكتبت الشكوى لأني الوحيد بينهم الذي يقرأ ويكتب.. أنا يا سيدي مدرس بملجأ الأيتام بأسيوط، صحيح يا سيدي البنايات لا تنفعهم.. وإن لقمة العيش تمسكهم هنا في الجبل ولكن لو سألتني رأيي.. لو كان لي شرف التحدث إلى المسئولين لطلبت لهم نصيبًا من أموال البر.. ومن عيون الخير، لقد أوصى الرسول عليهم وهم قوم فقراء.. ولكنهم يحتجون عليَّ.. إنهم مجانين يا سيدي.. لو رضوا بالنزول إلى القرية الجديدة لرضي عنهم المهندس والأميرة. إنها أميرة عظيمة يا سيدي ذهبت إليها في "ونتر بالاس" ورفعت

fb/mashro3pdf

إلى مقامها السامي قصيدة كتبتها ترحيبًا بمقدمها، فنفحتني خمسة جنيهات.

ولكنهم معذورون.. إنهم جهلاء كما لاحظ البيه. لا يعرفون شيئًا عن المدنية والحضارة. ويوردون أنفسهم موارد التهلكة.

وشعرت بحنين جارف إلى العمدة وأنا أستمع إلى الشيخ طلباوي.. وكان يثير في نفسي التقزز.

واستمر يتكلم ويتكلم، ويكرر ما قاله.. ثم سكت فجأة وأطلق صرخة مدوية في ظلام الليل، وأطلقت أنا صرخة بلا صوت لم تخرج من فمي فمزقت صدري رعبًا.

برز أمامنا فجأة رجل يسد الطريق يتقدم منا في ثبات، وكان الشيخ طلباوي قد تشبث بالحمارة التي وقفت مكانها وأنا معلق فوقها لا أدري كيف أتصرف.

وهجم الغريب القادم على الشيخ طلباوي.. وأطبق بيديه على عنقه وهو يقول له:

– إن جيت هنا تاني ح أجتلك يا طلباوي.

والشيخ يردد في ذلة:

– حاضر.. حاضر يا حسين.

ثم التفت الغريب إليَّ وقال في صوت مليء بالكبرياء:

– أنا "حسين علي".

وفي صمت هبطت من فوق الحمارة بمساعدته.. كان طويلاً فارعًا،

fb/mashro3pdf

بياض عينيه يلمع في الظلام، يلبس جلبابًا أبيض وخفًا في قدميه.. ومد يده إليَّ وصافحني بقوة.. وهو يقول:

– بيجولولي غرضك تتكلم معايا؟

ولم ينتظر أن يسمع شيئًا مني.. عاد والتفت إلى الشيخ المذعور وقال له مزمجرًا:

– بتجول إيه للأفندي يا طلباوي؟

وصاح الشيخ مدافعًا عن نفسه:

– وكيلك ربنا ما جلت له حاجة.

كان الشيخ قد فقد لغته العربية الفصحى في غمار ارتباكه وذعره.. ونظر إليَّ مستنجدًا كأنه يتوقع أني قادر على الدفاع عنه في هذا الموقف. ولزمت الصمت.

كنت بدوري أفكر في مصيري بعد هذا اللقاء المفاجئ بـ "حسين علي".. إنه مختف عن الأنظار لسبب ما.. سبب خطير ولا شك، وها هو يخرج من مخبئه، ويكشف عن شخصيته أمامي، هل سيتركني بعد ذلك أمضي في سبيلي؟ أم أنه سيتخلص مني حتى يظل محافظًا على اختبائه وقصة سفره إلى الواحات؟

إني لا أعرف سببًا واحدًا يدعو "حسين علي" للاختباء، ولا أعرف تهمة موجهة إليه، فلا أستطيع إذن إلحاق أي ضرر به، ولكن كيف أقنعه بهذا المنطق؟ إنه يستعمل يديه وعضلاته القوية، ونظراته النارية في التفاهم مع الشيخ طلباوي، هذا هو منطقه الوحيد فيما يبدو لي.

إني في مأزق.

fb/mashro3pdf

وأصر "حسين علي" أن يتركنا الشيخ، لأنه لا يريدني أن أستمع إلى كلامه، أو أسير في صحبته.. زعق في الشيخ أن ينصرف، والشيخ يقول له في مذلة: إن العمدة هو الذي طلب منه مرافقتي إلى الشاطئ الشرقي، ولكن حسين علي لم يكترث بكلامه، وطرده وهو يكرر تحذيره له، بألا يعود ثانية إلى الجبل، إذا أراد المحافظة على حياته.

وانصرف الشيخ طلباوي، وأنا ما زلت واقفًا إلى جوار الحمارة أنتظر الخطوة التالية التي سيقدم عليها "حسين علي".. إنها الخطوة التي ستقرر مصيري.

ووقف "حسين علي" يتأملني برهة.. ثم افتر فمه عن ابتسامة واسعة، لمعت لها أسنانه البيضاء وسط ظلام الليل. وفاجأني بقوله في لهجة عتاب:

– ليه مجعدتش معانا الليلة يا أفندي؟

فقلت له وقلبي يخفق بالانفعال:

– العمدة قال لي إنك سافرت الواحات.

فضحك "حسين علي" قائلاً:

– العمدة راجل عجوز.. بيخاف علينا كلتنا.. وإحنا مجلناش للشيخ طلباوي يكتب اسمي في الشكوى.. جلنا له اكتب إن إحنا كلتنا شاكيين المهندس، ولما سألت عني بالاسم، العمدة ظن أن الشيخ طلباوي عملها وغرضه يوديني النيابة.

وسألته:

– وعاوز يوديك النيابة ليه؟

fb/mashro3pdf

فأجاب حسين في ضيق:

– غرضه ياخد مرتي معاه سيوط.. خزيان بعد ما تعلم من عيشتنا هنا.. ماكنش غرضه إني أتجوزها.

وشعرت بصدقه وبساطته، رغم طوله وعرضه وقوته البدنية الظاهرة.. ولكني لم أطمئن إليه كل الاطمئنان.

وسألته من جديد:

– لكن إيه اللي جابك دلوقت؟

فرفع صوته في كبرياء:

– جلت للعمدة.. أنا راجل مستخباش زي النسوان.. ثم ثبت عينيه في عيني وقال:

– العمدة أخد عليك عهد الله.. متضرناش.

فقلت على الفور:

– صحيح.

وغمرني إحساس قوي، يشبه اليقين، أن "حسين علي" له شأن في كل أحداث الجبل.. صوته القوي ونظراته الثابتة.. وكبرياؤه.. كل هذا يكاد يثبت أنه الرجل الذي قلب "الترولي" وحرق الشونة في القرية النموذجية.

وتملكتني رغبة في تحدي "حسين علي".. كبرياؤه كانت تثيرني، ورجولته تستفزني رغمًا عني وتطالبني بامتحانها.

كنت أريد امتحان رجولته، لأني أريد أن ألمسها، وأراها واضحة جلية أمامي.. إن هذا النوع من الرجولة نفتقده في حياتنا في القاهرة.. هذه

fb/mashro3pdf

الصراحة المباشرة، لا نعرفها ولا نقابلها، هذه القدرة الخارقة على المواجهة وتبادل الثقة بسرعة وبعد مجرد ترديد قسم أو عهد.. شيء لا نتعامل به في حياتنا، ومن الصعب عليَّ تصديق وجوده.

كنت أريد أن أتأكد من وجود كل هذه الأشياء، وها هو "حسين علي" يقول لي إنه رجل.. و لم يبق أمامي إلا امتحانه لأتأكد من هذه الحقيقة.

ثم شيء آخر مهم.. لو أنه راجل حقًا، فلن يقدم على خيانتي أبدًا.. لن يقتلني في هذا الجبل غيلة، ليكتشفوا بقايا جثتي صدفة بعد أسابيع، وقد نهشتها الصقور والذئاب.

يجب أن أواجهه بصراحة، كما يواجهني هو بصراحة.. يجب أن أفتح له قلبي، وأخرج منه كل أسراري.. يجب أن أكون جريئًا معه.. هذه هي فرصتي الوحيدة كي أكسب احترامه، أن أكون رجلاً مثله، ومن طرازه، أتجاهل صفتي كمحقق، وأنسى تمامًا حيل التحقيق ومكره.. إنه سيحس بغريزته أي التواء في مقاصدي، وسيحتقرني، وإذا احتقرني فلن يعاملني معاملة الشيخ طلباوي.. لقد أبقى على حياة الشيخ لأنه شقيق زوجته، أما أنا.. فليس هناك ثمة سبب واحد تافه، يدعوه للإبقاء على حياتي، إذا ما احتقرني.

ورفعت رأسي في كبرياء تعلمتها من "حسين علي" ومن العمدة وأهل الجبل.. و لم أعرف لها مثيلاً في حياتي في المدينة من قبل، وقلت له:

– اسمع يا حسين.. إحنا دلوقت رجالة بنكلم بعض.. وأنا أقسمت إني ما اعملش حاجة تضركم.. وكلت عيش وملح مع العمدة..

fb/mashro3pdf

تقدر تقول لي: إيه حكايتكم بالضبط.. إنت عارف إنهم بيقولوا عليكم حرامية بتسرقوا الآثار.. وعارف إنكم متهمين بقلب "التروللي" وحريق الشونة في قرية المهندس.. تفتكر الحكومة تسيبكم كده تاخدوا الآثارات، ودي حاجة مهمة للبلد كلها.. إنتم بتبيعوا الآثار.. والحكومة عايزاها تشيلها في المتاحف.. دي ملكنا كلنا.. ملك بر مصر كله.. ح تعملوا إيه.. ح تستمروا على الحالة دي.. إنتم راضيين بالعيشة دي؟

و لم يجب "حسين علي" في الحال.. أطرق برأسه.. ثم رفعها من جديد وقال لي في هدوء:

– أنا ح أجولك حكايتنا.. وأنت تحكم بالعدل.

وطلب مني "حسين علي" أن نجلس في مكان.. يروي لي فيه قصته.. وأمسك بالحمارة وقادها، ومشيت إلى جانبه، وخرجنا من الطريق الجبلي، ومضينا وسط الصخور والرمال وأنا أتعثر في مسيري، وهو والحمارة يمشيان بسهولة كأنهما يجتازان طريقًا من الأسفلت في وضح النهار.

وأقبلنا ثانية على الكهوف.. ورأيت بصيصًا متناثرًا من النيران من بعد.. وسمعت أصوات ناي ودف وغناء.

إن العمدة قد دعاني إلى حضور الرقص والغناء معهم، فرفضت وها أنذا عائد إليهم.

وسألت "حسين علي":

– إحنا راجعين تاني للعمدة؟

fb/mashro3pdf

فقال لي:

– لا.. إحنا نجعد لوحدينا هنا جريبين منهم.. وأجولك كل اللي في بالي.

وفك "حسين علي" سرج الحمارة، ووضعه على الأرض كوسادة من الخيش أجلس عليها.. أما هو فقد جلس القرفصاء.

كنا متجاورين كصديقين يتناجيان.. في جو حالم.. وأصوات الأغنية والمزمار والدف تصل إلينا في وضوح، ولكننا لا نرى أحدًا من الأهالي.. كان الصوت ينبعث من مذياع كبير في السماء، ينقل الصوت صافيًا حزينًا.

وقال لي "حسين علي" وهو يهز رأسه مع الأغنية:

– اسمع يا أفندي "أبو ليلة" بيجول إيه.

كان صوت "أبو ليلة" قويًا جميلاً وحزينًا، رتيبًا في أنغامه ولكنه مليء بالانفعال والشجن، وكان يروي قصة جريمة.

إنه يسأل "بهية" عن الذين قتلوا "ياسين".. قتلوه وهو فوق ظهر الجبل.. لقد وجدوا جثته وملابسه سابحة في دمائه، حتى إن الطبيب خاف أن يقترب من جثته.

وذهبت بهية إلى المحاكم وأخذت معها محاميًا وقالت لوكيل النيابة: المتهم الذي يقف أمامك مظلوم.. ولكن وكيل النيابة عوج طربوشه على ناحية.. وحكم بأربع سنين.. سنتين في القصر العالي – اللومان – وسنتين في الزنزانة.. وكان "حسين علي" يردد الأغنية مع "أبو ليلة" في بعض مقاطعها فيهمس في حرارة "يا بهية وخبريني ع اللي جتل ياسين".

fb/mashro3pdf

ثم يسكت ليعود مرددًا:

"واحكم يا بيه النيابة.. جدامك مظاليم".

"عوج الطربوش على ناحية.. وحكم بأربع سنين".

"اتنين في الجصر العالي.. واتنين في الزنانين".

ثم يسكت من جديد.. حتى يردد مع "أبو ليلة":

وابــكي لك
لّمــا تبــكينــي
وأشكــي الوجيعه لمين
وحطيني على شمالك
وحطيني على اليمين.

إنه الآن يشعر بحزن قاتم، ويأس مطبق.. ويطلب من بهية أن يرقد على شمالها أو يرقد على يمينها. ولكن ما الفائدة.. إنه يتألم.

وخيل إليّ أن "حسين علي" تعمد أن يسمعني هذه الأغنية، كأنه يريد أن ينقل لي رأي أهل الجبل في المحققين ووكلاء النيابة الذين يعوجون طربوشهم على ناحية، ويحكمون على المظاليم في غير فهم لمشاكلهم.

وتذكرت صديقي وكيل نيابة الأقصر، وهو يلبس طربوشه في عناية، قبل أن يذهب إلى عمله.. ترى هل سمع هذه الأغنية، وأدرك مغزاها؟

ولو كان سمعها.. ألم يفكر لحظة ما في أن هذا الشعر وهذا اللحن الحزين الصادق، قد خرج من طبيعة الإحساس بالظلم.. الذي هو أحد مظاهره؟

fb/mashro3pdf

شيء مفجع حقًا أن يقع الظلم على هؤلاء الناس، فلا يملكون مواجهته إلا بأغنية!

وعجزت تمامًا عن نقل مشاعري وأفكاري هذه إلى "حسين علي".. كنت أريد أن أقول شيئًا، ولكني وجدت أن الكلام العادي سخيف مبتذل.. أمام هذه اللغة الشاعرية الرفيعة التي تتردد في أصداء الجبل.

ولاحظ "حسين علي" صمتي، بل لابد أنه شعر بتعاستي فقال لي يريد التسرية عني:

– "أبو ليلة" عنده كلام كتير تاني.. يوم ما اتجوزت كان بيجول..

وانطلق يغني:

"وأنـا نايمـة يا زوزو.. وأنا نايمـة"
"زحلـق المناديـــل.. وأنا نـايمة"
"وأنـا وأنـت في النـامـوســية"
"بيني وما بينك.. جارية وحبشية"
"آه يـا حبيب.. واضحك شوية"
"أحســن أسيبـك.. وتنيِّ قـايمة"

وفاضت نفسي بشعور من المرح، وأنا أنصت لـ "حسين علي".. إنهم يعرفون الضحك والدلال في هذا المكان.. كم يدخر هؤلاء الناس في نفوسهم من إنسانية راسبة في الأعماق.. إن قصتي معهم متكررة، تتلخص دائمًا في لقاء جاف خشن، أخشى فيه على حياتي، ثم ينتهي هذا اللقاء باكتشافي لروح شفافة شاعرة.. هذا ما وجدته في لقائي بالعمدة وهذا ما وجدته أيضًا في لقائي بـ "حسين علي".

fb/mashro3pdf

كنت في الأقصر أنظر إلى هذا المكان عبر النيل، فأشعر بالغموض، وتنتابني رهبة وقشعريرة. والآن أحس أني لو نظرت إلى الشاطئ الشرقي من حيث جئت، لانتابتني نفس الرهبة والقشعريرة، وربما الاشمئزاز أيضًا من الحياة التي نعيشها هناك كأننا مجرد مناظر آدمية. تتحرك وتتكلم وتضج وتصرخ أحيانًا.. دون أن يكون لها إحساس عميق بأي شيء.

كيف ننقل إنسانية أهل الجبل إلى حضارة أهل المدن دون أن نتلفها؟ وكيف نحتفظ بتطور أهل المدن وتقدمهم دون أن تصاب أعماقهم بالفراغ، فيتحولون إلى نفوس خاوية فارغة من المشاعر؟

هل يستطيع "حسين علي" أن يجيبني عن هذا السؤال؟

لابد أن عنده اقتراحًا ما.. فكرة جميلة.. كتلك الأغنية الجميلة التي يرددها في سرور واطمئنان.. لابد أنه قادر على أن يقدم حلاً للمأساة التي وقعت.. عندما اصطدم أهل الجبل بالقرية النموذجية ورفضوا النزوح إليها.. إنه اصطدام خطير بين إنسانية صادقة ساذجة حائرة وبين مدنية ناجحة سطحية قلقة.

واعترضتني ابتسامة عريضة على وجه "حسين علي". ابتسامة متفائلة.. ثم عاد إلى وجهه كبرياؤه وترفعه.. وشمخ بأنفه في الهواء.. وبدأ يروي قصته.

***

fb/mashro3pdf

يا حسين يا حسين.. يا حسين !

هذا النداء.. هو أول شيء يذكره "حسين علي" عن حياته في الجبل.

صوت أبيه، وهو يردد كلمة "حسين" في نداءين سريعين كطلقتين متتابعتين من بندقية، يعقبها نداء طويل ممطوط، ينساب في الفضاء وينفذ إلى داخل الكهوف ويردد الجبل أصداءه.

يا حس.. ين.

كان النداء يصل إلى حسين، أينما كان.

يصل إليه وهو يلعب وسط الحصى والصخور مع أخته مريم ويصل إليه وهو يتبع أحد السياح محاولاً أن يبيعه تمثالاً صنعه أبوه.. وعلمه كيف يقنع الخواجات بأنه تمثال فرعوني.. ويصل إليه وهو ينفض الغبار عن حذاء سائحة لقاء قرش تمنحه له.. ويصل إليه وهو يسير مع شقيقته بصحبة بعض النسوة في طريقهن إلى النهر، لإحضار الماء.. أو وهو يجلس مع بعض الصبيان ساعة الغروب، يتسامرون ويروون القصص، ويقضون حاجاتهم في نفس الوقت.

كانت علاقة حسين بأبيه، علاقة صوتية. علاقة نداء متصل من الأب، وتلبية للنداء من الابن.

كان حسين يهرع فزعًا إلى أبيه كلما ناداه، لأنه يعرف أنه لا يستطيع الحركة.. إنه مبتور الساقين.

وغالبًا ما كان الأب ينادي على ابنه حسين، ليرسله إلى "الخوجاية".

وكان حسين يفرح بهذه المهمة، ويتنافس مع شقيقته مريم في القيام بها، فيقفز فوق الصخور، ويعدو فوق الرمال، وربما تبعته مريم وهي تجري

fb/mashro3pdf

لاهثة، ويمرق من باب في سور حديقة صغيرة، ويدق على باب بيت من طين، فتفتح له "الخوجاية" الباب، وتمسح بيدها على شعره، وتعطيه قطعتي حلوى، واحدة له والثانية لمريم إذا جاءت معه.

وينقل حسين إلى "الخوجاية" رسالة أبيه.. وهي رسالة واحدة لا تتغير "أبويا بيجولك عدي عليه بعد العشا".

ومع ظلام الليل، تلبي "الخوجاية" دعوة الأب، وتجلس إلى جانبه، يتحدثان عن الكنز.

و لم يفهم "حسين علي" معنى كلمة "كنز" حتى كبر، ولكنه كان يدرك على نحو غامض منذ البداية أن صلة أبيه بالخوجاية، وأن حديثه معها عن الكنز هو مصدر أهميته بين أهل الجبل.

يبدو أن أباه يعرف أسرارًا كثيرة عن الجبل.. أسرارًا يهمس بها للخوجاية، وللعمدة أحيانًا، ولولا هذه الأسرار، لما كانت للأب أية هيبة، ولأصبح عبئًا ثقيلاً على أهله.

إذا مرض أبو حسين، قلق الجميع لمرضه، وترك "الخوجاية" كل شيء، وتلازمه في كهفه لتعالجه، ومرتين نقلته إلى دارها، وأرقدته على سريرها، ونامت هي على الأرض إلى جواره، حتى زالت الحمى عنه.

وكانت الهمسات بين أبو حسين و"الخوجاية" أو العمدة، تنتهي باجتماع الرجال في أحد الكهوف ليلاً، ليبدأوا "كحت الجبل" ويستمر "الكحت" شهورًا، وفي إحدى المرات استمر "الكحت" سنتين.

fb/mashro3pdf

وكانوا يصلون دائمًا إلى مقبرة فرعونية، ودائمًا يجدونها خاوية من الكنوز، استولى عليها أجدادهم، وتصرفوا فيها مرة واحدة - منذ خمس سنوات - وقعت المعجزة، واكتشفوا مقبرة غير مسروقة لأحد الأشراف الفراعنة، و لم يجدوا فيها غير بعض التماثيل المرمرية.. أخذتها "الخوجاية".

والعمدة هو الذي حدد الثمن، قالت له الجوجابة "اللي تطلبه يا عمدة"، وفكر العمدة طويلاً، ثم رفع رأسه، وقال لها في انفعال وحماس "ألف جنيه".. قالها وكأنه يطلب منها القمر و لم تقل "الخوجاية" شيئًا، مدت يدها إلى صدرها، وأخرجت منه القمر.. أخرجت من بين ثدييها الألف جنيه.

ووزع العمدة النقود على الجميع.. فاشتروا ملابس جديدة واشتروا حميرًا وأبقارًا.. كل الحمير والبهائم الموجودة الآن في الجبل، جاءت بعد اكتشاف تلك المقبرة.

وتزوج العمدة مريم.. ووجد حسين نفسه، أهم شبان الجبل وأكثرهم نفوذًا، بعد أن تزوج العمدة أخته.

أما أبو حسين، فكان غير راض عن هذا الاكتشاف.. ما قيمة بضعة تماثيل من المرمر.. إنه يريد مقبرة فيها ذهب وجواهر من الماس.. إنه يحلم بالغنى الواسع.. والمال الذي لا يحصى ولا يعّد.

وعاد أبو حسين إلى همسه مع "الخوجاية".. الهمس أصبح في دمه يدمن عليه وكأنه يعيش من أجله.

fb/mashro3pdf

وانتاب "حسين علي" خوف شديد من همس أبيه.. كل همسه الجديد عن المقبرة القديمة التي حاول الوصول إليها يومًا ما، منذ زمن بعيد لا يذكره حسين، ولكنه يعرف أنها كانت السبب في بتر ساقي أبيه.

ما زال الأب، بعد كل السنين التي مضت، وبعد فقد ساقيه يفكر في تلك المقبرة.

السرداب الطويل الذي "كحته" يبدأ من داخل الكهف الذي يسكن فيه، وقد غطاه بالحجارة، ومنع أي واحد من الاقتراب منه، ولكنه يمضي الساعات الطوال داخل الكهف وعيناه لا تتحولان عن مدخل السرداب.. هناك في الداخل، وعلى بعد عشرين مترًا "كحتها" أبو حسين بمعوله ويديه وأظافره.. هناك انهارت فوقه الصخور التي هشمت ساقيه، ومنعته من مواصلة التقدم، ومع ذلك فهو لن يستريح حتى يتقدم ويواصل الكحت.

و لم يحدث الأب ابنه عن رغبته أبدًا، بل تحاشى دائمًا ذكر أي شيء.. فظل السرداب شيئًا غامضًا بالنسبة لحسين يذكره كما يذكر أمه التي ماتت، دون أن يعرفها.. السرداب وأمه والمجهول والحزن، أشياء مختلطة دائمًا في صدر حسين.. أشياء لا يستطيع أن يعرفها، ولا يستطيع أن يتكلم عنها مع أحد أو يتخيلها بينه وبين نفسه صورة واضحة مفهومة.

ولكن ها هو الأب فجأة، يعود إلى السرداب، ويهمس بالحديث عنه مع "الخوجاية" وحسين ينصت في صمت إلى همس أبيه، فيستولي عليه قلق وخوف، دون أن يجرؤ على قول شيء لأبيه.. ماذا يقول له.. لا شيء يستطيع أن يقوله.. أحاسيسه غامضة لا يقوى على تحويلها إلى كلام.

fb/mashro3pdf

وتكلم الأب لأول مرة عن السرداب مع ابنه حسين.

روى له كيف بدأ الكحت في هذا السرداب، وعمره عشرون عامًا. وكان حسين في الثانية من عمره، ومريم ما زالت طفلة رضيعة.. كان يقوم بالعمل وحده، لأنه أراد أن يحصل على الكنز وحده.. كان يريد كل ما في المقبرة من ذهب وجواهر ليضعها تحت أقدام "جازية" أم حسين.

كان يريد أن يغطيها بالحرير والذهب، يريد أن يضعها في قصر كبير يقيمه لها على شاطئ النيل، يريد أن يأتي لها بالخدم والحشم، ويرسل أولادها إلى المدارس.. لم يتصور أبدًا أنه يحلم، كان ما يريده حقيقة ليس بينه وبين الوصول إليها إلا جبل.. وقرر أن يفتت هذا الجبل، ومضى في محاولته شهرًا بعد شهر، و لم يوقفه عن عزمه سوى انهيار الصخور فوقه.

وجرت "جازية" أم حسين صارخة مولولة إلى "الخوجاية" الفرنسية التي جاءت حديثًا إلى الجبل واستقرت فيه مع زوجها عالم الآثار.

كانت "الخوجاية" قد تعرفت بنساء الجبل، تعالج عيون أطفالهن بالقطرة، وتقدم لهن كل ما يطلبن من مساعدات.

وجاءت "الخوجاية" مسرعة ومعها زوجها واشتركا مع رجال الجبل في نقل أبو حسين من تحت الصخور التي وقعت فوقه ونقلوه إلى مستشفى بالشاطئ الشرقي في الأقصر.

وعندما حقق البوليس في الحادث، لم تقل "الخوجاية" شيئًا عن السرداب الذي رأته، وكذلك فعل زوجها، واعترف لهما أهل الجبل، بجميلهما الكبير، واطمأنوا إليهما، بعد أن أنقذا أبا حسين من السجن.

fb/mashro3pdf

ولما عاد أبو حسين إلى كهفه بعد بتر ساقيه، جاءته "الخوجاية" تزوره، وحدثته عن الآثار والكنوز المدفونة داخل الجبل، وقال لهما أبو حسين، إنه يعرف أماكن قبور كثيرة، وقالت هي له، إنها على استعداد لشراء كل ما يحصل عليه أهل الجبل من آثار وكنوز، ستمنحهم الثمن الذي يطلبونه، وسيقدم زوجها لهم كل ما يطلبون من مساعدة.

ورضي العمدة بهذا الاتفاق، ولكنه سخر من مساعدة عالم الآثار.. هؤلاء العلماء لا يعرفون شيئًا عن المقابر الحقيقية، إنهم يفتحون الكتب ويقرأونها، ثم يحددون مواقع لا يمكن أن يجدوا فيها مقابر.. أهل الجبل يحسون بغريزتهم أين خبأ الفراعنة كنوزهم، دون أن يفتحوا كتابًا أو يقرأوا صفحة واحدة.

واعتزم أبو حسين أول الأمر مواصلة الكحت في سردابه الذي فقد فيه ساقيه بمساعدة أهل الجبل، و"الخوجاية" وزوجها عالم الآثار.

ولكن لم تمض شهور حتى ماتت زوجة أبو حسين بالحمى فحزن عليها كما لم يحزن على ساقيه، وطرد الجميع من سردابه، وأغلقه دونهم بالحجارة وقبع في كهفه يحرسه، وهو يجتر في قلبه الأحزان.

أصبح "كحت" سرداب أبو حسين، بمثابة "كحت" في نفسه، نهش في لحمه وعظمه، تفتيت في أمله وحلمه، اقتحام وتطفل على حزنه الخاص الدفين لزوجته التي ماتت.

ويئست الخوجاية، ويئس أهل الجبل من إقناع أبو حسين بالاستمرار في كحت ذلك السرداب، وانصرفوا إلى مواقع أخرى أشار عليهم بها أبو حسين.

fb/mashro3pdf

ومضت السنون، وفي خلالها سافرت "الخوجاية" مع زوجها عالم الآثار إلى فرنسا، ثم عادت وحدها، وقالت لهم إنها لم تتحمل الحياة في بلدها، فقطعت صلتها بكل ماضيها.. حتى زوجها، وعادت إليهم لتعيش في حماهم، ولتستأنف معهم البحث عن الكنوز.

واكتشفوا عدة مقابر مسروقة.. ثم كانت تلك المقبرة التي وجدوا فيها التماثيل المرمرية، وفي أعقاب اكتشافها انتفض قلب أبو حسين بحلمه اليائس القديم.

اعترف الأب لابنه "حسين علي"، بأنه صبر طويلاً على أحزانه حتى تزوجت ابنته مريم من العمدة، وكبر حسين وأصبح رجلاً.. إنه يرى ابنه يتحرك ويمشي بساقيه، فيظن أن ساقيه المبتورتين قد عادتا إليه، وعاد إليه شبابه، واستيقظ الأمل اليائس في قلبه.

سيفوز "حسين علي" بالكنز المخبوء داخل السرداب، ولن يكون هناك احتمال لتكرر مأساة انهيار الصخور.. لن "يكحت" حسين وحده، سيشترك معه أهل الجبل وسيساعدونه، لقاء مساعدة أبو حسين لهم، بإرشادهم إلى تلك المقبرة التي فتحوها، وحصلوا على ألف جنيه ثمنًا لتماثيلها المرمرية.

و لم يستطع "حسين علي" معارضة أبيه، رأى في عينيه بريقًا غريبًا، كأنه انعكاس الذهب والماس اللذين يراهما في خياله ويتوقع الحصول عليهما.

ورضخ "حسين علي" لمشيئة والده حتى لا يطفئ رفضه هذا البريق الذي يلمع في عينيه.

وبدأ "الكحت" فعلاً في السرداب المهجور.

fb/mashro3pdf

ولكن ظهرت خلال "الكحت" أعراض غريبة على أبي حسين حتى خيل لأهل الجبل، أن الرجل بدأ يفقد عقله، كان صوته يرتفع فوق صوت المعاول وهي تفتت الصخر صارخًا:

– يا حسين.. أبوك عاجز يا حسين ما تفوتش أبوك وحده يا حسين.

ويجيبه حسين في دهشة:

– أفوتك كيف يا بوي؟

ويزحف الأب على يديه.. ويبحلق في الرجال بعينين ملتهبتين، ويشتمهم في حرقة:

– كلكم غدارين.. ح تخطفوا الدهب وتسيبوني وحدي هنا..

فيرد عليه واحد من الرجال:

– ما تجلش كده يا أبو حسين.. دا إحنا كلتنا أهل واحدة.. نفوتك كيف.. يا راجل عيب الكلام ده.

ويضرب أبو حسين بكفيه فوق رأسه ويلطم خديه مولولاً:

– أنا عاجز.. مين ح يحملني.. أنا حملي تجيل. إوعوا تفوتوني يا رجاله.. إوعوا تفوتوني؟

وأصبح "كحت" السرداب، مهمة شاقة على الرجال.. إن تفتيت الصخر أسهل من تهدئة أبو حسين.. ومحاولة منعه من اعتراض الرجال أثناء عملهم.

وفكر حسين في إحدى الليالي، أن يخرج هو وبقية الرجال من داخل السرداب وصاح في وجه أبيه، أنهم لن يستمروا في الكحت.

fb/mashro3pdf

ولكن الرجل زحف وراءهم، والدموع تنهمر من عينيه يتوسل إليهم ألا يكفوا عن الكحت، وكان يقترب من الرجال، ويكاد يقبّل أقدامهم، واحتضن ساقي ابنه، بكى متشنجًا، يرجوه ألا يهجر مع الرجال السرداب، وزحف إلى خارج الكهف وأقسم ألا يعود إلى داخل السرداب، حتى ينتهوا من عملهم.

وجاءت مريم وجلست مع أبيها وقضت طوال الليل تحدثه وتسرّي عنه، وهو يمسك بيديها ويقول لها في ذلة بين وقت وآخر:

– مريم.. نصيبك يا مريم.. فتحي عينيك.. أبوكي عاجز ما يجدرش يحوش عنك.

فتجيبه مريم في حدة:

– هو ده وجته يا بوي.

ويعود الأب يتوسل إليها:

– إوعي تفوتوني يا مريم.. تخدوا الكنز.. وتفوتوني أموت وحدي هنا.

– اسكت.. اسكت يا بوي.

حتى ظهرت تباشير الصباح.. وخرج الرجال مكدودين متربين من داخل الكهف.. وذهبوا إلى كهوفهم ليناموا، ونامت مريم في كهف أبيها ذلك النهار.

وفتحت عينيها، فوجدت الكهف خاليًا والضوء في الخارج ينبئ عن الظهيرة، وبحثت عن أبيها فافتقدته، وجرت إلى خارج الكهف فلم تجده حيث اعتاد الجلوس، وعادت إلى داخل الكهف فرأت الحجارة التي تسد

fb/mashro3pdf

مدخل السرداب في النهار مرفوعة، وأنصتت فسمعت صوت طرقات تأتي من الداخل. وشعرت مريم بانقباض في صدرها.. ودخلت السرداب المظلم تبحث عن أبيها.

ولم تصل مريم إلى أبيها داخل السرداب بسهولة.. كان يضيق بها أحيانًا، فتجثو على ركبتيها وتزحف بهما بضعة أمتار إلى الداخل، ثم تصل إلى جزء فسيح كأنه قبو، فتقف تتحسس في الظلام طريقها حتى يصطدم رأسها بالصخر فتصرخ مولولة:

- يا بوي.. أنا جايالك يا بوي.

وتزحف على ركبتيها من جديد، وهي لا تدري ما إذا كان الذي يسيل من جبينها عرقًا أم دم من جرح في رأسها.

ولم تسمع إجابة من أبيها.. كان الصوت الوحيد الذي يصلها، صوت طرقات عنيفة سريعة في الصخر، تعلو شيئًا فشيئًا كلما تقدمت إلى الداخل.

ووصلت مريم إلى جزء من السرداب يجب أن تزحف فيه على بطنها، وكانت تحس بصوت جلبابها وهو يتمزق، ولحم فخذيها وهو يحتك بالتراب وقطع الحصى الصغيرة، وملأ الغبار عينيها وفمها وأنفها، فسعلت بشدة وهي تحس بالاختناق، وبالتراب يدخل صدرها، فيجعله ثقيلاً يكاد يعجز عن التنفس.

وتمددت مريم بطولها، وهي عاجزة عن الحركة.. والرعب يملأ قلبها.. لو أنها أتت بمصباح.. لو أنها أخبرت شقيقها حسين.. لو أنها قالت

fb/mashro3pdf

لزوجها العمدة.. واستسلمت مريم لرقدتها يائسة، والدموع تنهمر من عينيها، لولا صوت الطرقات من الداخل يدعوها إلى أن تتقدم للحاق بأبيها.

وجمعت مريم كل قوتها، وجذبت أنفاسًا من التراب والهواء الراكد، ومضت تزحف وليس في رأسها سوى طنين الطرقات.. نسيت ما الذي جاء بها إلى السرداب، وما الذي يدفعها إلى التقدم.. نسيت جراحها، وتمزق ثوبها ووخز الحصى في لحمها.. نسيت أن لها جسمًا ويدين وساقين.. كان الذي يزحف ويتقدم في داخلها.. شيء محموم مجنون لا تدري ما هو.

وارتطمت مريم فجأة بجسد آدمي، وكانت الطرقات مدوية كان المعول يدق في رأسها، وصرخت مريم:

– يا بوي.

وإذا بيد قوية تدفعها، وبمعول حاد يهوي على فخذها فيقطعه، وصوت أبيها يهتف في جنون وعداوة:

– أنت مين.. مين اللي جاي يخطف الكنز مني.. ابعدوا يا أشرار.. ح أجتلكم واحد واحد.. ح أموتكم.

وأطلقت مريم صرخات عالية.. أعقبتها صرخات ضعيفة.. ثم لم يخرج منها صوت.. كأن معول أبيها قد مزقها إربًا، وكسر عظامها الهشة حتى أصبحت نثيرًا من اللحم وفتاتًا من العظم وبركة من دماء.

ولم يدرك الأب ماذا حدث.. كل ما حسبه أن عدوًا جاء ليأخذ منه الكنز فقتله، ولما عاد السكون من حوله، التفت إلى الصخر واستمر

fb/mashro3pdf

يضرب فيه من جديد، وقد صمم ألا يكف عن الكحت حتى يصل إلى الكنز، ويستولي عليه بنفسه.

***

و لم ينتبه الرجال إلى اختفاء أبو حسين ومريم حتى غروب الشمس، وكان العمدة في ساعات النهار راقدًا كعادته استعدادًا لسهر الليل، وقد تساءل مرتين أو ثلاث، بينه وبين نفسه عن غياب مريم، ولكنه علل اختفاءها بأن تكون ما زالت عند أبيها، أو ربما ذهبت لتحضر له بعض الماء من النهر، الذي يقع على مسافة طويلة، تحتاج لمشي كثير، وتخيل مريم وهي جالسة على شاطئ النهر تغسل ثياب أبيها، ثم قال لنفسه، إنها بنت طيبة ولكنها عبيطة، فأبوها مقعد يزحف بيديه وسط التراب، ولا فائدة من غسل ملابسه وتنظيفها، لأنها تتسخ بعد أن يلبسها أبو حسين في الحال.

ولكن في ساعة الغروب بدأ القلق يداخل العمدة، وازداد قلقه، عندما قابل بعض النسوة القادمات من النهر، وعلم منهن أن مريم لم تذهب معهن.

وعندما رأى العمدة "حسين علي" قادمًا يعدو نحوه، أجفلت عيناه، وشعر بخفقة حادة في قلبه.

و لم يصبر العمدة حتى يصله "حسين علي".. صاح فيه:

– مريم فين يا حسين؟

ورأى العمدة ملامح الانزعاج على وجه حسين، وسمعه يسأله في حدة وانفعال:

fb/mashro3pdf

– هي موش عندك يا عمدة؟

وزفر العمدة صيحة ألم وهو يقول:

– مريم راحت فين.. يا حسين؟

ووقف حسين واجمًا، وأطرق برأسه، حتى أمسك العمدة بكتفيه وهزهما في شدة، وبصعوبة نطق حسين قائلاً:

– يا عمدة.. هات الرجالة وتعالوا معايا ع الكحت.

و لم يقل العمدة شيئًا لحسين.. كأنه فهم من كلماته كل شيء.. لم يدرك شيئًا محددًا، ولكن القلق الملح الجاد كان أفصح من كل شيء.. كان القلق يصرخ في داخله.. أن كارثة قد وقعت.

و لم يتردد الرجال لحظة في اتباع أوامر العمدة.. تركوا مجلسهم في تلك الحلقة التي يتسامرون فيها، وهم يقضون حاجتهم، وبادروا بتلبية نداء العمدة صامتين.. إنهم يعلمون دائمًا أن الجبل غدار، وأن الكحت ليس هينًا، وراءه الموت، ويكفي أن يسمعوا نداء، حتى يتجمعوا بلا مناقشة أو تردد ويسرعوا إلى مصدر النداء.

وجاءوا بمصباح، ودخل ثلاثة رجال يتقدمهم "حسين علي" إلى السرداب.. تقدموا صامتين، مسرعين، في سرداب صامت كالقبر.. حتى توقف "حسين علي" فجأة.

وتقدم الرجلان من خلفه، فصرخوا، و"حسين علي" لا يصرخ ويده متصلبة على المصباح، وعيناه لا تتحولان عن جثة مريم يكاد لا يتبين ملامحها، وإلى جانبها جثة أبيه، وقد هشمت رأسه صخرة كبيرة دقتها.

***

fb/mashro3pdf

قضى العمدة تلك الليلة لا ينبس بكلمة، وقضى بعدها نهارين وليلتين لا ينبس بكلمة.. جلس مطرقًا، لا يتحرك ولا يشرب ولا يأكل ولا يتكلم.. وكأنه لا يتنفس.

وأول كلمة قالها العمدة، في فجر اليوم الثالث، زفر في ضعف، وخرج منه صوت غريب يكاد لا يسمع:

– مريم.. استراحت.

وفقد العمدة سيطرته على أهل الجبل، كان يجلس بينهم كالأبله. أو الطفل الصغير وهو يبكي، ومن حوله النسوة يندبن وهو لا يقوى إلا على ترديد جملة واحدة: "مريم استراحت".. حتى جاء نهار، ثار فيه العمدة على غير انتظار وصاح في النسوة من حوله:

– ما كنش جصدي حاجة لنفسي.. جصدنا انهد.. عيالي جطرهم الموت، وأنا وحدي ما لياش حد.. كان ظني مريم تعطيني عيال، كان جصدي اسمي ما ينجطعش.. اسمي يبجى على ضهر الدنيا.. ما بجاش جصادي إلا الموت.

أما "حسين علي"، فقد هام على وجهه في الجبل، وتبعته "الخوجاية" باحثة عنه، فلما وجدته وأرادت مواساته، هجم عليها يكاد يفتك بها، وجعلها تفر مذعورة منه.

وكان حسين يجلس على حافة هضبة، يطل منها على المهندس وبعض الرجال وهم يشيدون أول مباني القرية النموذجية.. كانوا رجالاً قليلين لا يزيدون على سبعة أو ثمانية، جاءوا من الجبل ليعملوا في البناء لقاء ثمانية قروش يقبضونها آخر اليوم.

fb/mashro3pdf

ولمح أحد هؤلاء "حسين علي" وهو يقضي اليوم كله ينظر إليهم من مكانه المرتفع، فذهب إليه، وطلب منه أن يشترك معهم في البناء، فاستسلم له حسين بلا معارضة.. وفي ذلك اليوم اكتشف أنه لم يأكل لعدة أيام، وأنه يتضور جوعًا فأكل كل ما استطاع أن يحصل عليه من طعام، ونام إلى جانب البنايات، ورفض العودة إلى الجبل.

ومضت شهور و"حسين علي" يبني في القرية النموذجية، والرجال يتزايدون قادمين من الجبل وهم يروون عن العمدة أقاصيص غريبة.. إنه ينصحهم بالفرار من الجبل.. وإذا رأى واحدًا منهم زعق فيه، وأمره أن يختفي عن ناظريه، لم يعد يطيق رؤية أحد، ولا حديث له إلا عن الموت الذي يترقبه، والوحدة التي يريد أن يعيش فيها.

حتى "الخوجاية"، جاءت للعمدة، فطردها، وهددها بترك الجبل، لولا أنها بكت وارتمت على قدميه، متوسلة إليه أن يسمح لها بالبقاء، وألا يمسها بسوء، فرضى ببقائها بشرط ألا تظهر أمامه.

وكان "حسين علي" يسمع هذه القصص، وكأنه لا يعنيه منها شيء. ويسمع الرجال وهم يتهامسون في قلق على مصيرهم الذي ينتظرهم عندما يفرغون من بناء القرية، وتضطرهم الحكومة إلى النزول فيها، فلا يهتم لقلقهم، ولا يفهم سبب انزعاجهم وخوفهم من المصير الذي يترقبهم.

قال أحد الرجال لـ "حسين علي"، يوم فرغوا من بناء دار العمدة وقبضوا يوميتهم:

fb/mashro3pdf

– اليومية دي ح يعطوها لنا بعد ما تخلص البنايات؟

فهز حسين رأسه قائلاً:

– لا.

وعاد الرجل يسأله:

– وح نعيش كيف يا حسين؟

وسكت حسين ولم يجب.

وثار الرجل مغيظًا في وجه "حسين علي":

– رزجنا فوج يا حسين.. مع الآثارات والسواح.. لو انتجلنا م الجبل ح نموت كلتنا.

وأجابه حسين في هدوء قاتل:

– نموت.. نموت.. إحنا عايشين ليه.

***

ولكن "حسين علي" أفاق من هدوئه القاتل في أحد الأيام.. ذهب ليقبض يوميته.. الثمانية قروش.. وما كاد يحصي القروش ويضعها في جيبه، حتى جاءه نفس الرجل الذي دعاه للعمل في البنايات وطلب منه قرشين من الثمانية قروش.

وظن "حسين علي" أنه يريد اقتراض القرشين منه، ولكن الرجل قال لحسين في وضوح لا يقبل التأويل، إن بقاءه في العمل مرتبط بالقرشين اللذين يجب أن يدفعهما يوميًا له.

fb/mashro3pdf

كان الرجل يتكلم في حزم، ويعلن أنه أصبح المسئول عن توريد الرجال للعمل، وأن كل من في الجبل يريدون الاشتراك في البنايات، وأنه هو الذي سيختار من يعمل، ولابد من دفع ثمن لهذا الاختيار.. إنه لم يعد عاملاً مثلهم.. إنه المقاول.

ورفض "حسين علي" أن يدفع القرشين، وترك العمل، وذهب في تلك الليلة إلى الجبل لأول مرة، ومضى إلى لقاء العمدة.

وقابله العمدة بالعناق والدموع، كان يضمه إلى صدره بقوة ثم يمسك بكتفيه ويدفعه إلى الوراء، ويطيل النظر إليه من خلال دموعه، ثم يضمه ثانية إليه قائلاً له في تأنيب وأسى:

- تفوتني كيف يا ولدي؟

وصمم العمدة على أن يسكن حسين معه، و لم يدعه يغيب عن ناظريه لحظة واحدة طوال الليل والنهار.. و لم يعد يناديه "يا حسين".. كما اعتاد من قبل. أصبح يناديه "يا ولدي".

وكانت لعودة "حسين علي" إلى الجبل، أثرها بين الرجال، فقد تناقلوا فيما بينهم قصة رفضه للعمل في القرية النموذجية وامتناعه عن دفع الإتاوة اليومية للمقاول، وتضخمت القصة وهي تنتقل من رجل إلى رجل، حتى راجت شائعة في الجبل تقول إن حسين هدد المقاول بالقتل، لأنه خان أهله وعشيرته وباع نفسه لمهندس القرية، وأصبح يسرق رزق العمال اليومي بتلك الإتاوة التي فرضها عليهم.

fb/mashro3pdf

وتحول حسين إلى بطل يرمقونه بإعجاب ويلتفون من حوله ينتظرون منه كلمة يقولها في مشكلتهم التي تزداد حدة، كلما مضت الأيام، وارتفعت مبان جديدة في القرية النموذجية، تنبئ عن اقتراب موعد هبوط أهل الجبل إلى تلك المباني.

واحتار حسين، ولكن أحدًا منهم لم يدرك حيرة حسين، كانوا جميعًا يظنونه قد بيَّت أمرًا بينه وبين نفسه، وأنه سيعلنهم بهذا الأمر في وقت قريب.. في الوقت المناسب.

حتى المقاول ظن أن حسين يبيِّت أمرًا، وبلغته الشائعات التي تقول إن حسين سيقتله، فصدقها، وخاف على حياته وخشى أن ينفض الرجال من حوله فقرر أن يبدأ بالهجوم، وذهب إلى العمدة يهدده.

كان العمدة مع حسين، عندما أقبل المقاول عليهما، وتجمع الرجال ليشهدوا ماذا يدور في هذه المقابلة.

قال المقاول للعمدة في تحدٍ ظاهر.

- شوف يا عمدة، أنا جاي في كلمتين مختصرين.. الأمر أمر الحكومة، ولازم تنزلوا تحت، وتخلوا الجبل.. المهندس غرضه اليوم، كل الرجالة تشتغل.. البنايات دي كانت رزج وأنا مشيت فيه.. اسمع كلامي يا عمدة، والله لولاي كان زمانكم محطوطين في الحديد، أنا حايش عنكم شر كبير.

وأطرق العمدة قبل أن يجيب، ولكن "حسين علي" لم ينتظر، انتفض هائجًا في وجه المقاول قائلاً له:

fb/mashro3pdf

- بجيت علينا راجل.. بتتريس فينا، عملت مجاول وأكلت جروشات الرجالة، وآخرتها جاي تخلي الجبل، عدي يا راجل من جدامنا، ما لكش عندنا كلام، إياك تطلع الجبل تاني، وأنا أجطعلك رجليك.

فنظر المقاول ساخرًا إلى حسين وقال له:

- أبوك يا حسين هو اللي اتجطعت رجليه.

و لم يكمل المقاول.. هجم عليه حسين يريد أن يفتك به لولا تدخل الرجال، ليفرقوا بينهما.

وفشل المقاول في الوصول إلى غرضه، لم ينجح تهديده، بينما أيقن الرجال أنهم على حق في ظنهم أن حسين يبيِّت أمرًا.

وأعاد الحديث للعمدة حماسه القديم فطرد المقاول وهو يصيح فيه:

- امشي يا راجل يا عديم الذمة.. والله لو شفتك هنا تاني لأفوت عليك الرجالة تاكلك.

وبعد انصراف المقاول، سمع حسين لأول مرة بعد موت أبيه وأخته.. كلمة "الكحت".. تتردد على مسمعه من جديد.

صاح أحد الرجال:

- يا رجالة.. إحنا همِّلنا الكحت.. وما لناش غيره.

وأيد الجميع صيحة الرجل.. ما عدا العمدة، وجم كأنه سمع نبأ مفزعًا، وما عدا حسين الذي انطلق مبتعدًا عن الجماعة دون أن يقول كلمة واحدة.

fb/mashro3pdf

كانت كلمة "الكحت" تزلزل كيان حسين، وتثير القشعريرة في نفسه، ومع ذلك فهي تلاحقه كالمصير المحتوم.

ماذا أمام أهل الجبل غير الكحت، إنهم ما كادوا يبتعدون عن الجبل حتى اتجهوا إلى مقاول يسرق منهم النقود.

وهناك القرية الجديدة، تنتظرهم بقبابها وكأنها قبور جديدة سيدفنون فيها أحياء.. لا عمل لهم فيها، ولا أرض يزرعونها، ولا مصدر رزق يكسبون منه قوتهم.

لابد أن يبقوا في الجبل.. والبقاء في الجبل معناه استمرار الكحت..

الكحت.. هو الخيال الوحيد.. الأمل الوحيد.. لكل من يسكن الجبل.

وأسرع حسين في مسيره، وكأنه يجري من "الكحت" الذي يطارده، حتى كاد يصطدم "بالخوجاية" دون أن يراها.

وقبل أن يفتح حسين فمه بالتحية لل "خوجاية"، كانت قد أمسكت بيده، وجذبته معها في صمت، ومضت به إلى بيتها ذي الحديقة الصغيرة.

وأجلسته "الخوجاية" على مقعد وثير، وقدمت له كوبًا من الشاي.

وما كاد حسين يمسك بكوب الشاي، حتى انحنت عليه "الخوجاية"، وقبلته في فمه قبلة طويلة ساخنة.

أطبقت بشفتيها النهمتين، على شفتيه وطوقت عنقه بذراعيها، وجلست على حجره، وهو لا يدري كيف يتصرف والأفكار تتتابع في رأسه طوال القبلة التي لا تنتهي.

fb/mashro3pdf

كان حسين يقول لنفسه.. إنها صديقة أبي.. لقد كنت أحمل إليها رسائله وأنا صبي صغير.. إن عمرها يساوي عمري مرتين.. آه لو عرف العمدة بهذا.. هل أتخلص منها.. إن جسمها بض.. وهي شقراء.. وتقبلني بحرارة ورغبة.. إنها تريدني.. ستكون عبدة لي.. هل أتزوجها.. شعرها أملس.. ثدياها يملآن كفي.. خصرها يتلوى بين أصابعي.. سأفوز بها.. إنها لي.. وفاز بها .

ورقدت إلى جواره في سرير لم ينم على مثله في حياته، وهو يتحسس أغطية السرير بنفس الفضول واللهفة اللذين يتحسس بهما جسدها.

وشعر حسين براحة من نوع غريب، سرى في جسده خدر وكسل لم يتعرف عليهما من قبل.. واستسلم لنظرات "الخوجاية"، وعيناها تنتقلان وكأنهما تتحسسان جسده العاري.. عيناها ليست فيهما قطرة من خجل ولا حياء.

ومدت "الخوجاية" ذراعها تحت عنق حسين، وداعبت أذنه البعيدة بأناملها وهمست:

– موش ح تغيب عنا تاني يا حسين.

وخرج من حسين صوت متحشرج أجش.

– لا.

وألصقت فمها بأذنه القريبة، وقبلته وهي تردد مع كل قبلة.

– باحبك.. باحبك.. باحبك.. يا حسين.

والتفت حسين بوجهه إليها، فأصبحت شفتاها بين عينيه وقبلته قائلة:– أنت سيدي:

fb/mashro3pdf

وارتاح حسين لكلمه "سيدي" فسرت له هذه الكلمة، ما حدث بينه وبينها.. فهي ليست زوجته، ولم يحبها أو يشتهيها يومًا من الأيام.. وما وقع بينهما كان مفاجئًا ليس له تفسير، إلا ما تقوله هي.. إنه سيدها.

ونهضت من الفراش، وغادرت الحجرة وسمع صوت الماء يتدفق عليها، ووقع أقدامها وهي تروح وتجيء.. ثم عادت إليه وقد ارتدت ملابسها كاملة، وقالت:

- أنت نعست؟

فنهض بدوره، وارتدى ملابسه وهو يسأل نفسه.. ماذا سيقولون عنه في الجبل، لو علموا بعلاقته بـ "الخوجاية".. لابد أن تظل هذه العلاقة في الخفاء، لا يعلم بها أحد.. واتجه إلى الباب يريد الانصراف، ولكنها أمسكت بيده.. وطلبت منه أن يجلس لتحدثه في أمر مهم.

سألته وهي ترنو إليه بعينيها:

- ح تعمل إيه يا حسين بعد ما رجعت لأهلك؟

فأجابها في غير اهتمام:

- ما أعرفش.

وارتفع صوتها في قوة:

- أنت عارف إيه اللي ح تعمله؟

ونظر إليها حسين في ثبات وقال جادًا:

- والله ما أعرف.

واقتربت منه، ووضعت يدها على كتفه، وهمست في تصميم.. وصوتها كالفحيح:

fb/mashro3pdf

- أنت ح تكمل الكحت.. يا حسين.

واشتدت ضربات قلبه.. وعادت إليه القشعريرة التي أحس بها عندما سمع الرجل يصيح.. يا رجاله.. إحنا هملنا الكحت.. وما لناش غيره..

الكحت يواجهه في كل خطوة يخطوها منذ عاد إلى الجبل الجميع يتحرقون إلى الكحت، لا يستطيعون التفكير في غير الكحت، هو نفسه حائر لا يدري ماذا يصنع، وسبب حيرته أنه لا يريد قبول الحل الوحيد الرابض أمامه كأنه القدر.. الكحت.

وهز حسين رأسه وقال في صوت مخضب بالألم:

- الكحت وراه الموت.. والسرداب مشئوم.. وكفاية المصايب اللي جرت علينا.

فصاحت فيه الخوجاية:

- أنت غرضك دم أبوك وأختك يروح هدر.
- كفاية اللي حصل.
- أبوك كان غرضه الكحت يتم.
- الله يرحمه.
- أنت خايف على نفسك يا حسين؟

وسكتت "الخوجاية".. وكفت عن إلحاحها عليه، وعندما همَّ بالانصراف، ودعته في برود.

***

fb/mashro3pdf

وتردد حسين على بيت "الخوجاية" كل ليلة، وأصبح سيدًا مطلقًا على جسدها، وفي كل مرة كانت تهمس له بتلك الكلمة التي يحبها ويرتاح لسماعها.. أنت سيدي.. ولم تحاول أن تكرر مناقشتها معه حول.. الكحت.

ولكن لم يمض أكثر من أسبوعين منذ بدأت علاقتهما، حتى قال لها حسين وهو يغادر بيتها في إحدى الليالي، إنه قرر استئناف الكحت.

فضمته إلى صدرها، وقبلته، ولم تدعه يترك البيت، ونام تلك الليلة في سريرها حتى الصباح.

***

وعاد الرجال إلى السرداب.. وارتفع صوت المعاول تفتت الصخر.. ولم يعد حسين يذهب إلى "الخوجاية" في الليل ورضيت هي بابتعاده عنها.. كان الكحت أهم من كل شيء، وهي تستطيع على كل حال أن تقابله خلسة في بعض الأيام ساعة العصر لولا حسين، الذي صمم على أن يقضي النهار بطوله راقدًا في الكهف عند مدخل السرداب، وقد انتابه وهم لا يستطيع الخلاص منه، أنه لو غادر الكهف لحظة، سيعود ليجد أحد رجال الجبل أو نسائه ميتًا داخل السرداب، كأنه يتوقع في شبه يقين، تكرار مأساة أبيه وأخته.

وفي إحدى الليالي، وكان الليل قد تأخر، واقترب الفجر ضرب "حسين علي" بمعوله في الصخر، فإذا به يسمع رنينًا غريبًا.

fb/mashro3pdf

ودوى مع رنين المعول صوت الرجال:

– الفاس بترن يا حسين.. لجينا الكنز.. الفاس بترن.

وانبثقت من سواعد الرجال قوى جبارة ترفع المعاول وتهبط بها، والرنين يزداد فيشحنهم بقوى أكثر وأكثر.

وتوقف "حسين علي" عن الكحت فجأة، وألقى بمعوله، وبدأ يمسك بسواعد الرجال الثلاثة الذين يشاركونه قائلاً لهم:

– كمان دجتين والكنز ح ينفتح بطلوا الكحت روحوا جولوا للعمدة يا رجالة.

وخرج رجلان من السرداب وبقى واحد مع حسين، ووجد الرجلان العمدة قريبًا من الكهف، يجلس مع بعض الرجال يستمعون لأغاني "أبو ليلة".

كان العمدة مرحًا تلك الليلة، وقد استعاد حيويته منذ بدأ الكحت وأبو ليلة لا يكتفي بالغناء، فيقوم بألعاب مضحكة يثني جسمه القصير إلى نصفين وقد نام على الأرض، ولف قدميه بعمامة، ويدير معركة بين الرأس الوهمية المركبة في قدميه، ورأسه الحقيقية.

وكان العمدة يهتف ضاحكًا وهو يشير إلى العمامة:

– والله يا رجالة ده الشيخ طلباوي بعمته اضربه يا "أبو ليلة".. اضربه الله يحميك.

والتفت العمدة، فإذا بالرجلين الخارجين من السرداب واقفين أمامه..

fb/mashro3pdf

ورفع العمدة عينيه إليهما، وفي رأسه دوار لمرآهما.. كان على استعداد لأن يسمع منهما أي شيء.. مصرع حسين.. انهيار الصخور.. موت أي أحد.

ولكن الرجلين هجما عليه يقبلانه وهما يرددان:

– الفاس بترن يا عمدة.. لجينا الكنز.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل السابع

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كل الصلابة والحزم اللذين في الدنيا، اجتمعا في وجه العمدة وارتسما في ملامحه بمجرد سماعه بالنبأ.

الرجلان يقولان له في فرح وانفعال محموم إن "الفاس بترن".. ولكن العمدة لا يستطيع أن يفرح أو ينفعل في هذه اللحظة.. إنها لحظة حاسمة، وهو يعرف جيدًا أنها أخطر اللحظات، أخطر من الكحت، ومن انهيار الصخور، أخطر من موت زوجته مريم وأبيها حسين اللذين دفعا حياتهما ثمنًا من أجل هذه اللحظة.

أي تهاون أو تردد من العمدة الآن، أي فقدان لسيطرته على أعصابه وعلى الرجال من حوله.. سيؤدي إلى كارثة.. ولو ضاعت هيبته، وضعفت كلمته، سيقتتل الرجال، وستدور المعركة بينهم على الكنز.. معركة رهيبة، قد لا ينجو منها أحد.

وارتفع صوت العمدة قاطعًا حادًا، فتوقف "أبو ليلة" عن ألعابه وأنصت الرجال في رهبة إلى العمدة وهو يقول لهم:

- أنا رايح يا رجالة أحرس الكنز، ح أجعد على بابه، محدش يجرب منه.. لحد ما أجمعكم كلتكم بعد صلاة العشا الليلة الجاية ونفتحه بإذن الله.

وصاح أكثر من واحد:

- نحرسه معاك يا عمدة.

fb/mashro3pdf

فنهرهم في غضب وقال محتدًا:

– أنا وحسين ح نحرسه وحدينا.. دا كنز حسين.. ونصيبكم منه حتخدوه بعدل الله.

وانصرف العمدة، يتبعه الرجلان اللذان أعلناه بالنبأ.. أما بقية الرجال، فقد جمدوا مكانهم لا يجسرون على اللحاق به ولما ابتعد عنهم العمدة، أفاقوا لأنفسهم وانطلقوا إلى الكهوف يوقظون النائمين ويتشاورون في الحدث العظيم.

ووصل العمدة إلى السرداب، ودخله في الحال.. جثا على ركبتيه، وزحف على بطنه، ومشى على قدميه، حتى وصل إلى نهايته، ورأى حسين وزميله في انتظاره.. وما كاد يرى حسين، حتى تذكر فجأة، أن مريم زوجته ماتت في هذا المكان.. فانقبض قلبه، واغرورقت عيناه بالدموع، وظنها حسين دموع الفرح فأعطاه الفأس قائلاً في حماس:

– اضرب يا عمدة.. الفاس بترن.

وأمسك العمدة بالفأس، وضرب به الصخر، فأحدث رنينًا يدل على وجود فراغ خلف الصخر.

إنه فراغ المقبرة الفرعونية التي تحوي الكنز.

وألقى العمدة بالفأس، وتنهد، ومسح على وجهه، ثم أقبل على حسين يعانقه في رفق، وهو يردد في نغم حزين وقور:

– ربنا عوضك يا ولدي.. ربنا عوضك.

fb/mashro3pdf

وخرجوا من السرداب، وهم يسندون العمدة، كان يترنح ويتعثر في كل خطوة وقد خارت قواه وهو يتحسس جوانب السرداب.. نفس الجوانب التي تحسستها مريم قبل أن تموت، هناك شيء في داخله يدفع بجسمه إلى التمسح بالصخر والتراب الذي يحمل رائحة مريم ويحتفظ بنسمات آخر لحظات حياتها.. لقد ناء بحمل الحزن والفرح اللذين اجتمعا في هذا السرداب.. وما كاد يصل إلى مدخل السرداب، حتى ألقى بجسده على الأرض، وأعلن أنه سيرقد في هذا المكان، ولن يتزحزح عنه، حتى يأتي موعد فتح المقبرة.

والتفت العمدة إلى حسين وطلب منه أن يذهب إلى "الخوجاية" في الحال، وينقل إليها الخبر، لتستعد في الليلة القادمة لاستلام الكنز.

***

وذهب حسين إلى بيت "الخوجاية" مع تباشير الصباح وطرق بابها في عنف حتى فتحت له الباب، وما كادت تراه حتى اختفى النعاس من عينيها، وسألته في انزعاج:

- إيه اللي جرى يا حسين؟

فأجابها في هدوء:

- لجينا الكنز.

وبدت اللهفة في صوتها، واشتد انزعاجها، كأنها سمعت نبأ فاجعًا. وصاحت فيه:

- فتحوا المجبرة يا حسين؟

fb/mashro3pdf

فهز رأسه مجيبًا:

- لا.. ح نفتحها الليلة الجاية.

ولم تكد تسمع إجابته، حتى تركته واندفعت إلى داخل البيت، وعجب حسين لها، كان يتوقع منها أن تقبله وتعانقه ولكنها انصرفت عنه كالمجنونة، وتبعها إلى حجرة نومها فوجدها تخلع قميص نومها في عجلة وارتباك، وترتدي عباءتها الصوف وتضع على رأسها العمامة الزرقاء وفي لحظات كانت على استعداد للخروج.

ونظرت إلى حسين وقالت له في لهجة آمرة:

- ما تعملوش حاجة لحد ماجي.. أنا رايحة الشط الشرجي وراجعه بعد جيمة ساعتين.. ألاجيك هنا يا حسين.

فسألها في دهشة:

- رايحة فين:

ولم تنتظر حتى تجيب عن سؤاله جرت إلى الخارج وهي تقول:

- رايحة أجيب الفلوس.. ألاجيك هنا بعد ساعتين.

واندفعت في الطريق مهرولة.

وعاد حسين إلى كهفه. فوجد العمدة راقدًا على ظهره مغمض العينين فظنه نائمًا.. ولكنه ما كاد يجلس حتى سمع صوت العمدة يسأله:

- جلت لها؟

والتفت حسين إليه فوجده قد فتح عينيه يحدق بهما في سقف الكهف.. وأجابه:

fb/mashro3pdf

- أيوه.

- وجالت إيه؟

- راحت الشط الشرجي تجيب الفلوس.

وسكت العمدة.. وظل يحدق في سقف الكهف، وقد ظهر التعب واضحًا في عينيه.

وسأله حسين في قلق:

- هي بتجيب الفلوس منين يا عمدة؟

فحول العمدة عينيه عن السقف.. ونظر إلى حسين طويلاً ثم قال:

- من صحابها.

وارتفع صوت حسين رغمًا عنه متسائلاً في ضيق:

- صحابها مين؟

وشعر حسين أن نظرات العمدة تقتحمه وتكاد تخرق صدره، فتكشف عن سره مع "الخوجاية".. كانت نظراته عميقة محدقة، فيها تفكير وتأمل وعزوف عن الرغبة في الكلام.

وأخيرًا قال العمدة:

- صحابها تجار الآثارات.. جماعة في الشط الشرجي.

ولم يستطع حسين أن يمنع نفسه من مواصلة الحديث.. فعاد يسأل في حدة.

- وهي تعرفهم منين.. يبجوا مين دول؟

fb/mashro3pdf

واعتدل العمدة في رقدته وجلس متربعًا، وعبث بيده على الأرض.. ثم ثبت عينيه في عيني حسين وقال له:

- خواجات شكلها.. كان واحد منهم بييجي على بيتها كل ليلة وإنتوا بتكحتوا.

وصرخ حسين وقد فقد السيطرة على نفسه:

- ماجلتليش ليه يا عمدة؟

وضحك العمدة ساخرًا فجأة.. كأنه وصل بنظراته العميقة التي يوجهها لحسين، إلى اكتشاف.. استطاع أن ينفذ إلى صدر حسين، ويرى ما في داخل قلبه.

قال العمدة في سخرية مرة:

- يمكن جوزها بيتفرج معاها على الكنز.. هي حرة في نفسها.. دي خوجاية مش واحدة من نسواننا.

ثم وجه العمدة طعنته إلى حسين.. فجأة.

قال له:

- أنا غرضي تتجوز يا حسين.

وشعر حسين بالخجل، وكأنه تعرى أمام العمدة، وحزّ في نفسه أنه لم ينادي كعادته "يا ولدي".. قال له يا حسين.

وأيقن حسين.. أن العمدة عرف كل ما بينه وبين "الخوجاية" لا يدري كيف عرف.. ولكنه عرف.

fb/mashro3pdf

وشكر حسين للعمدة بينه وبين نفسه، أنه لم يصارحه إلا بهذه الطريقة اللبقة المقنعة.. اكتفي بأن ينصحه بالزواج، وقال حسين في ضعف واستسلام.. كأنه يدافع عن نفسه.. كأنه يبحث عن الخلاص:

– وأنا كمان غرضي أتجوز يا عمدة.

واختفت السخرية من صوت العمدة ومن نظراته.. وقال له:

– أنا اخترت لك مرتك يا ولدي.

ونظر إليه حسين متسائلاً.. وعيناه تعلنان التسليم والقبول.

قال له العمدة بصوت وقور:

– أخت الشيخ طلباوي.. بنت حلال وغلبانة.. وغرضي أريحها من أخوها.

ومرت برأس حسين صورة سريعة لأخت الشيخ طلباوي.. وهي تمر أمام الرجال فيتحدثون عن مهارتها في صنع أطباق القش.. وهي تذهب باكية إلى العمدة تشكو له شقيقها الشيخ طلباوي كلما جاء من أسيوط.. وإعجابه بإصرارها على البقاء في الجبل على الرغم من فقرها، لأنها ترفض أن تكون خادمة لزوجة شقيقها.

ووجد حسين نفسه يقول للعمدة:

– وافجت يا عمدة.

وقام العمدة واتجه إلى حسين، فقام بدوره، وتماسكت أيديهما.

وقال العمدة:

– اجرا الفاتحة معايا يا حسين.

fb/mashro3pdf

وقرأ الاثنان الفاتحة، وحسين لا يكاد يصدق أنه أقدم على هذا الزواج تحت تأثير العمدة وحده، لا شك أن لله دخلاً كبيرًا في كل هذا الذي تم الآن.

وعاد العمدة إلى مكانه من باب السرداب ورقد موليًا ظهره لحسين، وكأنه لم يحدث شيء.

وظن حسين أن العمدة قد نام، فجلس يراجع الأفكار والمشاعر الكثيرة التي اختلطت في رأسه وصدره.. بعد حديثه القصير مع العمدة.

أحس كأنما قوى مجهولة تسيطر عليه وتطارده.. الكنز و"الخوجاية"، والعمدة ونظراته العميقة النفاذة.. وموافقته المفاجئة على الزواج.

إن رأسه يدوي بضوضاء أضخم من تلك التي كان يسمعها والمعاول تضرب في الصخر داخل السرداب، إنه لا يدري ماذا سيحدث له، وأغرب من هذا، إنه لا يدري ماذا حدث له.

ها هو يوشك أن يحصل على الكنز.. كنز شق طريقه إليه مضطرًا.. كنز يذكره بفاجعة أخته وأبيه.. أيفرح أم يحزن بهذا الكنز.. كل ما يشعر به الآن، هو القلق والحيرة.

نفس القلق والحيرة، اللذين لازماه قبل الكحت، وأثناءه أنه لا يكاد يصدق أن ذهب الكنز، ولا الذهب المخبوء في جميع كنوز هذا الجبل يستطيع أن يخرجه من قلقه وحيرته.

كان يريد المال ليأكل ويعيش.. ولكن كيف يأكل ويعيش بعد أن يحصل على المال.. إنه لم يفكر في ذلك حتى الآن كان مشغولاً بالبحث عن المال، حتى نسي كيف يتصرف عندما يحصل عليه.

fb/mashro3pdf

هل يترك نفسه لتلك القوى الخفية التي تحركه، هل سيضطر إلى الحياة بالمال، كما كان مضطرًا إلى الحياة بالفقر، هل يترك "الخوجاية" ترسم له الطريق.. ولكنه نبذ "الخوجاية" منذ لحظات منذ قرأ الفاتحة مع العمدة، متعاهدًا على الزواج بأخت الشيخ طلباوي.. هل يترك أخت الشيخ طلباوي ترسم له الطريق.

وقفزت إلى مخيلة حسين، صورة الأغطية النظيفة الوثيرة على سرير "الخوجاية" اقتحمت صورتها تفكيره فجأة، وكاد يشعر بملمسها الرقيق الناعم على جسده.. هذه الأغطية تطارده أيضًا في خياله أينما ذهب، وفي أي وقت.. كان يضرب الصخر بفأسه داخل السرداب، فيبرز أمامه سرير "الخوجاية" وأغطيته، وجسدها العاري إلى جانبه، ويظل يضرب في هذه الصورة البارزة أمامه.. كأنه يريد تفتيتها.. كأنه يريد القضاء على السرير و"الخوجاية" ونفسه، وكأنه يسمع صوت طرقات الفأس تردد في أذنه كلمات "الخوجاية": أنت يا سيدي، أنت يا سيدي.. هكذا قضى الساعات الطوال يعمل في السرداب ويعجب كيف لم ير زملاؤه الرجال، نفس الصورة التي يراها مرتسمة على الصخر، وكيف لم يسمعوا نفس الكلمات التي تتردد مع طرقات الفأس.

حتى علاقته بـ "الخوجاية"، لم تزده فرحًا ولم تزده حزنًا.. زادته قلقًا وحيرة.

وأخيرًا هذا الزواج المفاجئ.. زاده حيرة جديدة في حياته.

fb/mashro3pdf

وشعر حسين برغبة في أن يقوم ويمسك بفأسه ويضرب في الصخر في أي مكان.. يداه وهما ممسكتان بالفأس تضربان، هما الشيء الوحيد الواضح في حياته، وسيتخيل أمامه في الصخر.. صور الكنز و"الخوجاية" وأخت الشيخ طلباوي، وحياته كلها.. وسيضرب في هذه الأشياء، وسيستمر يضرب ويضرب إلى ما لا نهاية.

وقام حسين من جلسته.

وفوجئ بصوت العمدة يسأله:

- رايح فين يا ولدي؟

ونظر إليه حسين في ارتباك، خيل إليه أن العمدة كان يتجسس على أفكاره، لو عرف أنه يقظان لما أطلق لهذه الأفكار العنان، وتركها تطوف برأسه.

وأجاب حسين في ارتباك:

- أنا رايح لل "خوجاية" يا عمدة.

فبدت الدهشة على وجه العمدة، واتكأ على كوعه موشكًا على الجلوس وسأله في حدة:

- تعمل إيه.

فأجابه حسين وقد زاد ارتباكه:

- جالت لي أستنظرها لما ترجع.

وكان العمدة قد أتم جلوسه، وارتفع صوته:

- كيف تستنظرها.. فيه حاجة؟

fb/mashro3pdf

وأدرك حسين أن العمدة يشك في هذا اللقاء، وقرر ألا يذهب إلى "الخوجاية" حتى يزيل هذا الشك.

وقال تروح أنت يا عمدة.. أنا تعبان وغرضي أنعس شوية.

وأطرق العمدة برأسه، ثم رفعها وقال:

– روح يا ولدي.. يمكن عايزة حاجة.

***

وذهب حسين إلى بيت "الخوجاية"، وكانت لم تأت بعد من رحلتها إلى الشاطئ الشرقي، فجلس القرفصاء على عتبة الباب الداخلي، يتفرس آثار الأقدام في الممر الرملي بين باب الحديقة وباب البيت، هذا أثر أقدامه عندما جاء الآن.. وهذا أثر أقدامها.. وهذا أثر أقدام من.. إنها أقدام مطموسة، ربما كانت لذلك الرجل الذي يقول العمدة، إنه تردد على بيتها طوال ليالي الكحت.. لماذا يجيء في الليل، لا شك أنه كان يرقد معها على السرير، وكانت تقول له هو الآخر.. "أنت سيدي".

وشعر حسين بالغيرة تعود.. إنها لم تعانقه وتقبله كما كان يتوقع عندما أعلنها بنبأ الكنز.. جرت كالمجنونة إلى ذلك الرجل من جنسها، لتقبله وتعانقه، هو سيدها الحقيقي الذي يعطيها المال الذي تشتري به الكنز.. لقد خدعته وخانته، والعمدة يقول عنها إنها "حرة في نفسها" ولكنها ليست حرة معه، سيضطرها إلى الاعتراف بجرمها. ويده قابضة على عنقها، وسيلقي بها على الأرض ويحطم رأسها بقدميه، وسيسفك دمها، ويراه يسيل على الأرض وسيخضب يديه بالدم ويذهب إلى العمدة،

fb/mashro3pdf

ويضع كفيه أمام عينيه، وعندئذ لن يحس بالارتباك أمام نظراته، وسيشعر بالخلاص وينقذ نفسه من أحد أسباب القلق والحيرة اللذين يشعر بهما، بل هذا هو السبب الحقيقي لحيرته وقلقه.

وسمع حسين صوت حفيف، كأن شيئًا يحرك الهواء ورأى عباءة "الخوجاية" ثم رآها كلها أمامه، ومرت به دون أن تفوه بكلمة، وفتحت الباب ودخلت.

والتفت حسين إليها، فرآها تنظر إليه محمرة الوجه، لاهثة الأنفاس، وأخيرًا قالت له:

- ادخل.. جاعد عندك ليه؟

ونهض حسين، وتبعها، ورآها تدس يدها في صدرها، وتخرج كومة من النقود.. أوراقًا مالية كثيرة، نظر إليها في غباء.

وتنهدت "الخوجاية" وقالت:

- كل الفلوس دي علشانك يا حسين؟

ولم يجد لكلامها معنى، لأنه لا يفهم معنى هذه الأوراق الكثيرة، أحس بأن رأسه كالصندوق المغلق، فوجم، ولم يقل شيئًا.

واقتربت منه "الخوجاية"، وأحاطته بذراعيها فجأة، ومالت عليه تقبله، وقبل أن تلمس شفتاها شفتيه، انتفض ودفعها بذراعه دفعة قوية، فترنحت وسقطت على الأرض أمامه.. وصاحت في ذعر تخالطه الدهشة:

- ما لك يا حسين.. إيه اللي بتعمله ده؟

وخطا حسين نحوها، ووضع قدمه فوق صدرها وقال بصوت خشن:

fb/mashro3pdf

– ح اجتلك.

وكان صدرها يعلو ويهبط رغم ثقل قدمه فوقها. وأيقنت من نظراته إليها أنه يعني ما يقول، فانكمشت في رقدتها وأدارت رأسها، ودفنت وجهها في الأرض حتى لا تراه.

ولكزها حسين بقدمه قائلاً في قسوة:

– مين الراجل اللي كان بيعدي عليكي كل ليلة؟

و لم تقل شيئًا.. ازدادت انكماشًا. وجسمها كله ينتفض ويرتعش.

وهوى حسين بيديه على رقبتها وكتفها.. وجذبها إليه بقوة، فارتفعت مع يديه صارخة في الهواء.. ورأى حمرة وجهها تتحول إلى زرقة، وملامحها مختلطة مشوهة، عيناها جاحظتان.. وشفتاها متقلصتان، وأسنانها تصطك.. وهي تحاول أن تقول كلامًا غير مفهوم.. بالفرنسية..

ونظر حسين إليها في دهشة، كأنها امرأة أخرى غير تلك التي عرفها وبدأت الدموع الجامدة في عينيها تنهمر وتسيل على خديها، واستمرت في الكلام بتلك اللغة الغريبة التي لا يفهمها.. كانت تنطق بها مولولة.. متوسلة، وصوتها يرتفع شيئًا فشيئًا.. فيقيم بينها وبين حسين حاجزًا من الغربة والنفور.

ورفع حسين يده عنها واستدار صامتًا. واتجه إلى الباب ليخرج منه.. ولكنها جرت خلفه وتشبثت به.

وارتبك حسين.. إن شعوره ويديه قابضتان عليها تريدان الفتك بها، يختلف تمامًا عن شعوره الآن..ويداها قابضتان على ذراعه متشبثتان به.

fb/mashro3pdf

كان وجهها شاحبًا مستطيلاً، كان شيئًا يتمدد فيه، ولون وجنتيها قد تغير من جديد، كان محمرًا، ثم تحول إلى زرقة، وها هو أخيرًا يطغى عليه الاصفرار، وكانت تبدو ضعيفة.. ضعيفة جدًا.. كأنها تتشبث به حتى لا تنهار وتسقط على الأرض.

ولكن ضعفها كان قويًا.. عينيها وجسدها ويديها وأنفاسها.. كل شيء ضعيف فيها، يتشبث به في قوة، وكأنه يقول لن أتركك لأنك لو تركتني سأموت، وأنا لا أريد الموت.

و لم يفهم حسين ما يحدث له، أراد أن يتركها ويغادر بيتها حتى لا يقتلها، فأرادت هي أن يبقى حتى لا تموت.

وعاوده الشعور الذي يلازمه، بأنه يعيش ويتصرف في حياته مضطرًا.. هناك قوة تحركه، قوة أكبر منه، إنه يتأملها وهي تجذبه إلى داخل البيت، فلا يدري لماذا امتنع فجأة عن قتلها، ولا يدري لماذا لا يحاول ما اعتزمه من جديد.

ماذا جرى له؟

لقد اعتاد كلما عصفت الحيرة برأسه، أن يلجأ إلى يديه يضرب بهما وهما ممسكتان بالفأس في صخر الجبل، أو يعمل بهما في البنايات.. ولما عذبته الغيرة واحتار في أمر هذه المرأة.. لجأ إلى يديه يريد بهما القضاء عليها، ولكن يديه مشلولتان.

هل شلت يداه عنها، لأنه أحس أنها أجنبية غريبة عنه.. كأنه لم يكن يعرف ذلك من قبل؟

fb/mashro3pdf

ودوَّى صراخ غير مسموع في رأس حسين، أنت لم تقتلها لأنك لا ترضى أن تراها جثة.

نعم.. إنه على يقين الآن أنه لا يريد أن يراها جثة.. إن منظر الجثث بالنسبة له، منظر مقدس.. نبيل.

جثة مريم.. جثة أبيه.. إنه يتذكر منظر الأشلاء والدماء فيشعر بالاحترام والرهبة والحزن والألم والخشوع.

إنه لا يرضى أن يحول "الخوجاية" إلى مريم.. ولا يمكن أن تكون "الخوجاية" مريم.

ضاعت منك يداك يا حسين، وهما ما زالتا متدليتين من كتفيك.. لم تعد لديك يدان، إنهما مبتورتان كساقي أبيك، لم تعد تملك سوى تلك الرأس التي تطن بالحيرة والأحزان والخيبة، يداك لا تستطيعان القتل، ولا تستطيعان الإمساك بتلك الكومة من الأوراق المالية.. يداك لا تستطيعان الحصول على الكنز.. الكنز الذي حصلت عليه.

جثة مريم.. وجثة أبيه.. وجثة "الخوجاية" كما كان يريد.. هل هذا هو الكنز الحقيقي الذي حصل عليه؟

وأفاق حسين من الدوامة التي في رأسه ليجد نفسه جالسًا على ركبتيهما وهي تقول له في صوت مسكين:

– خد الفلوس يا حسين، وخد الكنز بس سيبني أعيش معاكم هنا..

وحاول حسين عبثًا أن يقول لها شيئًا.. بحث عن أي كلام يخرج من فمه فلم يجد.

fb/mashro3pdf

واستأنفت "الخوجاية" الكلام، كأنها تعرف أنه عاجز عن الحديث.. قالت في صوت متهدج:

– أنا سبت جوزي وأهلي وبلدي.. وجلت لنفسي أنتم أهلي يا حسين.

فقاطعها صوت مفاجئ من حسين، مليء بالغضب والإنكار، صوت كأنه انفجار:

– لو كنت من نسواننا، كنت جتلتك.. أنت خوجاية.

فصرخت في ألم:

– اجتلني يا حسين.. وما تجلش عليَّ خوجاية.

وأحس حسين بسخرية مُرة تجتاح نفسه.. سخرية من كلامها، ومن ركوعها على ركبتيها، ومن جلسته على المقعد الوثير فانتفض واقفًا، يريد الخروج من هذا البيت الغريب.. ما له والبيوت، وهو رجل يعيش في الكهوف أن البيوت تجري في داخلها أشياء غريبة محيرة.. أشياء تدعو إلى السخرية.. "الخوجاية" والمهندس والسواح هم الذين يسكنون البيوت.. إنه يكره السقف والجدران والمقعد وهذه المائدة المكومة فوقها النقود وذلك السرير في الحجرة الأخرى.. إنه يريد أن يشفى مما في رأسه.. يريد أن يعود إلى الجبل.

وتركته "الخوجاية" دون أن تتشبث به بيديها.. اكتفت بملاحقته بصوتها قائلة:

fb/mashro3pdf

- أنا موش ح أشوف حد غيرك يا حسين.. ح أجعد هنا في داري.. مش ح أعدي الشط.. روح أنت اتفج معاهم في البر الشرجي، وعندك الفلوس آهي.

ومضى حسين إلى الباب، دون أن يلتفت إليها فصاحت فيه يائسة:

- يا حسين.. جوللي أعمل إيه؟

فالتفت إليها وقال ساخرًا:

- اعملي اللي غرضك فيه يا "خوجاية".. اتكلمي مع عمدتنا. أنا ما ليش معاكي كلام.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الثامن

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

وما كاد حسين يقترب من كهفه، حتى لمح أخت الشيخ طلباوي واقفة أمام باب الكهف تنظر في اتجاهه، ثم تسرع بالدخول لتخرج من جديد وتطل عليه برأسها، ثم تختفي داخل الكهف.

وأسرع حسين في خطاه، ولكنه قبل أن يدخل الكهف رأى الفتاة تمرق إلى الخارج، وتعدو بعيدًا، بعد أن أرسلت إليه نظرة خاطفة أخيرة.

وخيل إلى حسين، أنها تفر منه، لا من الخجل، إنما هي بشاعته، وتتبعها بعينيه وهو يتساءل في قرارة نفسه: هل يصلح لها زوجًا بعد كل الذي حدث؟

واستقبله العمدة ببشاشة، كان جالسًا مكانه أمام مدخل السرداب، يحتسي الشاي، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة.

وصاح العمدة في مرح:

– مرتك كانت بتخدم عليَّ يا ولدي..ح تتجنن م الفرح.. موش مصدجة إنها ح تتجوز زين زيك.

وارتجف حسين لمسمع كلمة "زين".. إن العمدة يسخر من كل شيء. فليسخر كما يشاء، كل ما يريده الآن هو أن يرقد داخل كهفه، أن يحبس نفسه هنا، لا يفكر في شيء.. ولا يصنع أي شيء.. سينزوي هناك في الركن البعيد.. وينام.

ولاحظ العمدة وجوم حسين، فسأله في هدوء:

– "الخوجاية" جالت لك إيه؟

fb/mashro3pdf

فأجابه حسين وهو يرقد في الركن الذي اختاره:

- جابت الفلوس.

وسأل العمدة في لهفة:

- كام.

وأجابه حسين وهو يتمدد راقدًا على ظهره:

- ما اعرفش.. فلوس كثير يا عمدة.

وألح العمدة سائلاً في لهفة:

- وجلت لها إيه؟

وزفر حسين الهواء من رئتيه وقال:

- جلت لها ما لياش معاكي كلام يا "خوجاية".. الكلام مع عمدتنا.

وأطرق العمدة برهة ثم قال في تردد:

- ما لك يا ولدي؟

وأجابه حسين في صوت خفيض:

- ولا حاجة يا عمدة.. غرضي أنعس شوية.

فقال العمدة في صوت حنون:

- انعس يا ولدي.. الليلة جدامنا شغل كتير.

وانقطع الكلام بينهما، ولم يعد يتردد في الكهف سوى صوت أنفاسهما.. تقطعه رشفات العمدة للشاي.

وأدار حسين عينيه إلى صخور الكهف وتبلدت أفكاره ولم يعد يدري أهو نائم أم يقظان؟

***

fb/mashro3pdf

وانتبه حسين من جموده، على يد تحركه، وأصوات رجال عديدين يملأون الكهف، وصوت العمدة يهدر بالأوامر:

- كل واحد يروح لحاله ويجعد في بيته، وسيبوني أنا وحسين والرجالة اللي اتفجنا معاهم لوحدينا.. وإياك أشوف جنس راجل يتحرك من مطرحه لغاية مانخبركم إن إحنا لاجينا الكنز.

وتلفت حسين حوله في ذهول، كأنه يحلم.. كان الليل قد أقبل وساعة فتح الكنز قد دنت، والعمدة مليء بالحيوية والنشاط، وصخور الكهف نفسه تضج بأنفاس الرجال وهمهمتهم.. وهو وحده يرقد خاملاً متهالكا كالمريض.

وصاح العمدة في حسين:

- انهض يا ولدي.. أنت نعست كتير.

فانتفض حسين واقفًا، كأن صوت العمدة هو الذي يحركه ورأى الرجال يغادرون الكهف صامتين، وبقى العمدة ورجلان آخران يمسك أحدهما بمصباح ويمسك الثاني بالفؤوس.

وتناول العمدة المصباح من يد الرجل قائلاً:

- وجف جدامك هنا واحرسنا.. متخليش حد يجرب، ثم التفت إلى الرجل الآخر وقال له:

- وأنت كمان أجف وياه.

وتقدم الرجل الممسك بالفؤوس إلى حسين وسلمها له، فأمسك بها، وهو ينظر إليها نظرات جامدة، كأنه لا يفهم الغرض منها، ولماذا سلمت إليه.

fb/mashro3pdf

ورن صوت العمدة في الكهف.

– هم بينا يا حسين.

و لم ينتظر العمدة حسين، تقدم إلى مدخل السرداب مادًا يده الممسكة بالمصباح وتبعه حسين كالمنوم.

وخيل لحسين أنه يدخل السرداب لأول مرة في حياته، كانت عيناه تقعان على جوانبه في دهشة، وينظر إلى ظهر العمدة الذي يتقدمه، وهو يتساءل بينه وبين نفسه: أهذا هو العمدة حقًا؟ وينظر إلى المصباح في يد العمدة فيبهر الضوء عينيه، فيظل يحدق فيه، وهو لا يدري أنه ضوء المصباح.

كان الجمود في عقله، أشد من الجمود في جسمه، والبلادة في رأسه أخطر منها في حركاته، وعندما وصلا إلى ذلك الجزء من السرداب، الذي يجب أن يزحف فيه بيديه ورجليه، وقف مبهوتًا لا يقوى على الانحناء، حتى سمع صوت العمدة يشده إليه.

– جرب يا ولدي.. أنت فين؟

فجثا على ركبتيه، وزحف إلى الأمام حتى لحق بالعمدة الذي تمهل في انتظاره.

وبينما هو يزحف على بطنه في جزء آخر من السرداب بذل جهدًا كبيرًا ليتذكر شيئًا نسيه، أحس أنه ينقصه ذلك الشيء ما هو؟ إنه لا يدري كان رأسه خاويًا فارغًا تمامًا، ليس فيها فكرة واحدة، ولا صورة واحدة.. الشيء الوحيد الذي يتحرك في رأسه، هو هذا الوهج الذي يملأ عينيه.. ذلك الوهج الذي يمسك به العمدة أثناء تقدمه إلى الداخل.

fb/mashro3pdf

ولما عجز حسين عن التفكير، لجأ إلى حواسه يراقبها، تتبع صوت يديه الممسكتين بالفؤوس ترتطمان بأرض السرداب وتتبع صوت أنفاسه، وتتبع صوت العمدة وهو يزحف نشيطًا أمامه.. وتحسس التراب في يديه.. وتحسسه على جبينه وفي خياشيمه، كأن هذا التراب هو كل حياته.. حياته التي نسى ماضيها، ونسى مستقبلها.

وهز حسين رأسه، وقال لنفسه بصوت مسموع:

– أنا لسه نعسان.

وسمعه العمدة، ولكنه لم يتبين كلامه فقال له:

– بتجول إيه يا ولدي؟

فرد حسين في جمود:

– أنا لسه نعسان؟

وضحك العمدة قائلاً:

– اصحى أمّال.. فوج لنفسك.. إحنا داخلين دلوقيت على المساخيط.

ولم يقل حسين شيئًا، واصل زحفه وهو يفكر جاهدًا فيمن هم المساخيط، ولم يستطع التفكير، فظلت الكلمة تتردد في أذنيه.. المساخيط.. المساخيط.. المساخيط.. حتى سمع العمدة يقول له:

– جوم اقف يا حسين.. أنت مش شايف!

ووقف حسين.. كان قد وصل إلى جزء مرتفع من السرداب يستطيع أن يمشي فيه على قدميه.

fb/mashro3pdf

وما كاد يتقدم بضع خطوات، حتى رأى أمامه سدًا من الصخر.. إنه نهاية السرداب.

وتبين حسين في تلك اللحظة الخاطفة كل شيء.. وقعت عليه كل ذكرياته الضائعة منه، بثقلها الكامل.. انهارت عليه كصخرة هائلة محطمة.. رأى حسين العمدة، وأيقن لأول مرة منذ دخل السرداب، أنه العمدة، ورأى المصباح في يده، وعرف أنه مصباح، ورأى نهاية السرداب، وأدرك المهمة التي جاء من أجلها.. وتذكر مريم وأباه و"الخوجاية" وأخت الشيخ طلباوي والبنايات والمقاول والمهندس، تذكر صباه البعيد ونداءات آتية إليه، والسواح.. لم يبق شيء لم يتذكره و لم يحتدم في رأسه.

وصرخ حسين وقد وقعت الفؤوس من يديه.

– إيديا عطلانة يا عمدة.. متوجفة.

فنظر العمدة إليه في حيرة وعدم فهم وسأله في انزعاج:

– جرى إيه لإيديك يا ولدي:

فأجابه حسين في ألم، ويداه متدليتان إلى جانبه:

– متوجفة.. بتنغز.

فتقدم العمدة منه وقرب مصباحه وتحسس يديه وهو يقول:

– بتنغز ليه.. إيه اللي صابها؟

– ما اعرفش.

ونظر العمدة إلى حسين نظرة حادة.وقال له في حزم:

– عار عليك يا وليد تخاف من المساخيط ثم رفع صوته بلهجة آمرة:

fb/mashro3pdf

اضرب في الحجر.. ولا اضرب فيك.. والله أجتلك ولا يجول الرجالة إن ولدي حسين جبان.

وانحنى العمدة والتقط أحد الفؤوس ووضعه في يد حسين ودفع به إلى الصخر صارخًا:

- اضرب.. اضرب.

وأمسك العمدة بفأس آخر.. ورفعه مهددًا به حسين، وضاقت عينا حسين، وزم شفتيه، وكتم أنفاسه، ثم رفع يده بالفأس، مطلقًا صيحة مفزعة، وهجم على الصخر كأنه مخلوق بشري يريد سفك دمه.

واستمر حسين يضرب في الصخر وهو ينادي أباه وأخته، واشترك العمدة معه وظلت فأساهما ترتفعان وتنخفضان حتى نفذت فأس حسين داخل الصخر، وهوت منه قطعة من الفراغ خلفه، واستمرا يفتتان الصخر حتى فتحا ثغره تكفي لأن يمد رأس واحد منهما والمصباح في داخلها ودفع حسين برأسه داخل الثغرة، بينما أدخل العمدة يده بالمصباح، ووقف خلف حسين ينتظر ما سينبئه بأنه رآه.

ووجم حسين، لم ينبس بكلمة، ولم يخرج رأسه من الثغرة ولم يتأثر بوخزات العمدة له في ظهره، ولا بصيحاته الملهوفة "لجيت الكنز يا حسين" وحاول العمدة أن يخرج يده الممدودة بالمصباح.. فاضطر حسين أن يتراجع إلى الوراء.. وهجم العمدة أن يجذب حسين بكل قواه ولكنه لم يستطع.. فضرب وجهه بالمصباح.. فاضطر أن يتراجع إلى الوراء.. وهجم العمدة على الثغرة ونفذ فيها برأسه.. وأطل داخلها.

fb/mashro3pdf

وسقط مصباح العمدة من يده، فغرق الاثنان في ظلام دامس، وصاح العمدة يصرخ، وقد فقد صوابه، حتى أمسكت به يدا حسين وجذبتاه بشدة لتنحيه عن مكانه، وعاد حسين يحدق في ظلام الثغرة، وهو يصرخ بدوره باكيًا:

– يا بوي.. يا بوي.. مريم.. مريم.. فين إنتو؟

واستمر حسين ينادي أباه وأخته زمنًا لا يعرف مداه، حتى بح صوته، وتحرَّقت عيناه، وثقلت رأسه، فهوى على الأرض.

وساد السرداب صمت بغيض، حتى أنفاسهما لم تكن مسموعة، ولبثا الاثنان على هذه الحال فترة كأنها الدهر.

***

سكت "حسين علي" عندما وصل إلى هذا الحد من حكايته التي يرويها لي، كان من الصعب عليه أن يواصل الكلام، وقد غلبه الانفعال، وكان من العسير على أن أصبر على بقية حكايته وقد غلبني الانفعال أيضًا.

وأوشكت أن أستحثه ليقول لي المزيد لولا إطراقة رأسه وعلامات الإجهاد والحزن الواضحة على قسمات وجهه، لا يخفيها ظلام الليل المحدق بنا.

كان لابد أن أحترم صمته، وحولت عيني في ضيق إلى كهوف الجبل، النيران التي كنت أراها عن بعد قد خبت، و"أبو ليلة" قد كف عن أغانيه، ونظرت إلى ساعتي فلم أتبين عقاربها فأشعلت عود ثقاب، وعلى ناره، علمت أننا قاربنا الفجر.

fb/mashro3pdf

لقد تأخرت طويلاً في الجبل، والمهندس ينتظرني، وربما ظن أني قتلت هنا، فأبلغ البوليس.. يجب أن أعود إليه فورًا، قبل أن يأتي البوليس للبحث عني، ماذا يكون موقفي وأنا أغادر الجبل في حراسة البوليس، ستنهار كل الصداقات التي أقمتها بيني وبينهم، سترتفع حواجز سميكة من الكراهية بيننا، سينظرون إليَّ كرجل خدعهم.. لن يفهموا أبدًا أنني غير مسئول عن حضور البوليس، كل ما سيفهمونه أني خائن ضحك عليهم وعرف أسرارهم، ثم مضى مع البوليس ليفشي هذه الأسرار إليه.

ولكني لا أستطيع أن أعود الآن، قبل أن أعرف الحكاية إنها لم تعد مجرد حكاية، إنها حياة كاملة عشتها، وانقطاعها على هذا النحو.. موت لهذه الحياة، موت لجزء من مشاعري التي ولدت وخلقت واكتسبتها في هذا الجبل.

وقدمت لـ "حسين علي" سيجارة، وسألته في قلق:

– شفتم إيه يا حسين.. شفتم الكنز؟

فلم يرد عليَّ، وحول بصره بعيدًا عني وأحسست أنه يريد أن يتكلم، ولكن ما سيقوله ثقيل عليِ نفسه، متجمد في صدره.

واشتد قلقي، وخيل إليَّ أني عرفت ما حدث، فسألته في تردد:

– لقيتو المقبرة مسروقة؟

وهمس حسين في أسى، وكأنه خجلان:

– لجينا بير.

– بير.. إزاي؟

fb/mashro3pdf

– بير غويط واصل ما لوش جرار.

وشعرت كأني أسقط في هذه البئر بلا قرار، إذن فهذه هي نهاية كل هذه المتاعب والأحزان.. لا شيء سوى قاع لا قرار له.. لا نهاية له.

وتكشفت لي حقيقة الموقف، إن وصولهم إلى البئر أسوأ من وصولهم إلى مقبرة مسروقة، إن البئر تعني أن المقبرة مازالت موجودة بكل ما فيها من كنوز، إنها حتمًا هناك في بطن الجبل، لكن لابد لهم أن يبدأوا "الكحت" من مكان آخر.. من الاتجاه المقابل.. حيث لا تقف البئر فاغرة فاهها العريض تتلقف كل من يريد أن يخطو إلى الكنز.

كحت جديد، وسرداب جديد، وضحايا جدد، ودم مسفوك جديد.. هذا هو ما تعنيه البئر.. إن أي إنسان لا يستطيع أن يتحمل كل هذا الشقاء في حياته مرتين.. إنه موقف جنوني، كنز موجود فيه الأمل الوحيد في الحياة، وعقبات قائمة فيها كل اليأس من الحياة، كيف يتحمل حسين هذا الموقف. لقد بدأ يروي لي حكايته، وهو يضحك كأنه لا يحمل همًا.. قابلني شامخًا مترفعًا كالجبل.. إنه الجبل فعلاً، لا قيمة لكل هذه المناظر الطبيعة التي تحيط بي.. الجبل وكهوفه، الصحراء ورمالها، السماء ونجومها.. كل هذه الطبيعة لا قيمة لها بغير حسين.. إنه أقوى منها وأشد احتمالاً منها، وأجمل منها.

ونسيت لهفتي على العودة، واحتقرت قلقي وخوفي من إبلاغ المهندس للبوليس.. إن البوليس لا يستطيع أن يأتي الآن إلى الجبل، لو أراد الحضور فسينتظر حتى الصباح.. ولو جاء البوليس فلن يأتي للبحث عني وحمايتي، بل سيأتي للقبض عليَّ وإخراجي من الجبل، فأنا لا أريد العودة

fb/mashro3pdf

إلى القرية النموذجية.. المهندس أصبح شيئًا تافهًا لا طعم له، بمحاولاته الساذجة لترقية أهل الجبل.. القاهرة تحولت في عيني إلى كتلة ضخمة من التفاهة، ليس فيها رجال، وليس فيها مشاكل.. فيها ضجة حمقاء وصخب أبله. هذه هي القاهرة.. وإدارة التحقيقات.. حيث يجلس الموظفون على المكاتب.. وأمامهم ملفات ضخمة فيها أوراق كثيرة يقلبونها ويؤشرون عليها.. ما معنى ما يصنعونه في إدارة التحقيقات.. كل ما يعرفونه أن مثل هذا الرجل الذي يجلس أمامي.. حرامي.. "حسين علي" حرامي.. ما أشد غباءهم وبلاهتهم.. كأنهم يقولون: الجبل حرامي.. هل هناك غير المجانين يتهمون الجبل بالسرقة!

وسمعت حسين يقول لي فجأة:

– أنت راجل متعلم ومتنور.. جول لي أعمل إيه؟

كأن العلم الذي درسته في الجامعة، سيفيده في حل مشكلته.. مسكين، إنه يجهل أن العلم، هو الذي أفضى إلى هذا العلاج الأحمق للمشكلة.. بناء قرية نموذجية، يعيشون فيها بغير عمل كأن الرزق سيسقط عليهم من السماء.. هذا هو ما اقترحه العلم، بيوت نظيفة فيها مراحيض و"سيفونات" وسكان فقراء لا يملكون قرشًا يشترون به طعامهم ولا يملكون ظروفًا تتيح لهم العمل.

العلم قد أصابه الخوف والهذيان عندما مس مشكلتهم، ورغم ذلك ما زال حسين يتساءل عن العلم والنور.. وهل هو قادر على تقديم العلاج لهذه المأساة.

fb/mashro3pdf

وصحت في حسين يائسًا:

– مش عارف أقول لك إيه يا حسين، فابتسم ابتسامة طيبة فاهمة وقال:

– أنت مبتجولش زي غيرك انزلوا البنايات.

فقلت في شبه اعتذار:

– كنت باقول كده الأول.. لكن دلوقت أقول لكم بصراحة ما تنزلوش.

وجدتني أندفع متورطًا معه، في تحدي مشروع الحكومة ببساطة متناهية.

وهز حسين رأسه راضيًا ثم قال:

– تعرف أنت مين اللي أشعل الحريق، سمعته يعترف:

– أنا.

ولوَّح بيديه وقد رفع صوته:

– حرجتها وح أحرجها كمان وكمان.

إنه يدلي باعتراف كامل عن جرائمه.. متجاهلاً تمامًا صفتي كمحقق، وكرجل يقتضيه واجبه، وأمانته في عمله أن يبلغ في الحال عن هذه الجرائم.

ولكني لم أتأثر مطلقًا بالأزمة التي تدفعني إليها اعترافات حسين، كنت قد نسيت صفتي كمحقق، وفقدت معنى وظيفتي و لم أعد أفهم مدلولها في هذا المكان.

fb/mashro3pdf

لم أعد قادرًا على تصور أفعال حسين على أنها جرائم يعاقب عليها القانون.

ولو فرض أني تغاضيت تمامًا عن قسمي، ووعدي لأهل الجبل بألا أخونهم.. أو أبوح بشيء يضرهم، ولو فرض أني تمسكت بواجبي كمحقق، وأبلغت عن "حسين علي"، وكتبت اعترافات كاملة في تقريري، ماذا سيحدث بعد ذلك؟

كل ما سيحدث، هو أن تزداد مصائب حسين، مصيبة أخرى جديدة، مصيبة تأتيه من حيث لا يتوقع، سيحقق معه صديقي؛ وكيل نيابة الأقصر، وسيدون محضر تحقيق على هذا النحو:

س – أنت متهم بكحت الجبل وسرقة الآثار؟

ج – أنا كحت.. صح.. لكن أنا موش حرامي.

س – يعني انت معترف بالكحت؟

ج – أيوه.

وسيقفل وكيل النيابة المحضر عند هذا الحد، وقد تملكه الظفر والارتياح، لحصوله على اعتراف صريح، وسيقضي حسين بعد ذلك حياته في السجن.

هكذا سيلخص محضر تحقيق النيابة، حياة "حسين علي"، وحياة أهل الجبل جميعًا، ومشاكلهم كلها، في سؤالين وجوابين واعتراف.. ثم سجن.

fb/mashro3pdf

إنه ظلم.. ظلم بشع لا يمكن أن أساعد عليه، حتى ولو اتهمت بأني غير أمين في عملي.. أتستر على الجرائم وأخالف القانون الذي يجب عليَّ أن أطبقه.

و"حسين علي" يعرف جيدًا، أني لن أظلمه.. لذلك رضي أن يبوح لي بسره كاملاً.. إنه يريد أن يروي لي حياته، لأنه حائر يائس، يريد حلاً عاجلاً لمشكلة حياته.. حتى الغرباء عنه، مثلي يطلب منهم أن يساعدوه، وليس له سوى شرط واحد أن يمنحوه ثقتهم، ولا يطلعوا على جراحه الدفينة، ليسخروا منها، أو يزيدوها طعنًا وتجريحًا.

وفجأة وقف حسين على قدميه، وحدق بعيدًا في الظلام.

وتبعت اتجاه نظراته.. فرأيت شبحًا يسير عن بعد.. وكان سواد الليل قد بدأ يتحول إلى زرقة داكنة عند الأفق الذي يتجه إليه الشبح.

وسألت حسين في صوت خفيض:

– مين ده يا حسين؟

فأجابني في بطء:

– "الخوجاية"

– رايحة فين؟

– رايحة تصلي.

وسألته في عجب:

– هي مسلمة؟

وأجابني حسين وهو ما زال يتابعها بنظراته.. وشبحها يكاد يختفي في الأفق:

fb/mashro3pdf

- لا.. دي ع تصلي جال للفراعنة.
- بتصلي للفراعنة.. إزاي!

فاستدار إليّ حسين وقال وعلى شفتيه ابتسامة:

- تعالى معايا.

ومد حسين يده إليّ ليساعدني على النهوض، وتلفتُّ باحثًا عن الحمارة فلم أجدها، وفهم حسين أني أبحث عنها فقال:

- الحمارة مشت من بدري.

وجذبني من يدي برفق، ومشى مسرعًا وأنا أهرول وراءه حتى وصلنا إلى طريق بين هضبتين عاليتين، اجتزناه حتى منتصفه، ثم وقفنا عند منحدر متفرع من الطريق يؤدي إلى فوهة كبيرة داخل الهضبة.

وسرنا مع المنحدر في حذر، ودخلنا الفوهة الصخرية وهبطنا منحدرًا آخر، ووقف حسين فجأة، وهمس في أذني مشيرًا إليّ أن أدلف في سرداب على يميني قائلاً:

- أدخل طل عليها.

وتقدمت داخل السرداب، حتى وجدت بابًا قصيرًا، لمحت داخله بهوًا كبيرًا مليئًا بالنقوش الفرعونية.. إنه إحدى المقابر المكتشفة التي يزورها السواح في الصباح.

وتقدمت برأسي داخل البهو، وأنا أؤخر قدمي إلى الخارج فرأيت السيدة الفرنسية راكعة، وقد أعطتني ظهرها.. رافعة رأسها إلى سقف المقبرة.. سقف في لون السماء.. منقوش عليه نجوم وآلهة.. كأنها تصلي.

وتملكتني رهبة سمّرتني في مكاني بضع دقائق، وكأنني في كابوس

fb/mashro3pdf

أو عالم مسحور، ثم انتفضت، وعدت أدراجي لحسين، وخرجنا إلى الطريق عائدين.

وسألت حسين ونحن نجتاز الطريق بين الهضبتين:

– إيه الحكاية.. بتعمل كده ليه؟

فأجاب حسين وهو ينظر أمامه:

– اتجننت.

– خلاص.. سابت حكاية الآثارات.

ومشي حسين بضع خطوات، قبل أن يروي لي ما حدث لها.

***

في تلك الليلة التي دخل فيها العمدة وحسين السرداب ليفتحا الكنز، ظلت "الخوجاية" يقظانة ساهرة في بيتها، تنتظر في أية لحظة النبأ الكبير.

وفكرت أكثر من مرة، في أن تخرج من بيتها، وتذهب إلى كهف حسين، لتستقبله عند خروجه منه، ولكنها كانت تعدل في اللحظة الأخيرة، وينتابها خوف من لقاء حسين، إنها لا تعرف ماذا يدور في رأسه، وقد يصيح غاضبًا في وجهها بمجرد أن يراها، ويقسم ألا تنال شيئًا من الكنز، لقد رفض المال الذي قدمته له، وسخر منها في مرارة، وقال لها إنه لن يتفق معها على شيء، وإذا أرادت أن تتكلم مع أحد، فلتتكلم مع العمدة. ثم إنها وعدته بأن تحبس نفسها في بيتها ولا تخرج منه، ولابد أن تتمسك بوعدها، حتى لا تزيد من ثورته عليها، إنها تفضل أن تستثير عطفه ولن تفلح في ذلك إلا إذا حبست نفسها فعلاً، وقالت لكل من يأتي إليها إنها لن تخرج من بيتها، حتى يأذن لها حسين، وسيذهب أهل الجبل جميعًا،

fb/mashro3pdf

ويتشفعون لها لدى حسين، لأنه لن يقوى على تفسير فعلتها.. لن يقول لهم إنها تعتبره سيدها ورجلها، وإنه كان على علاقة بها، وسيضطر حسين إلى المجيء إليها، ليقول لها إنه صفح عنها، ومن يدري ماذا يحدث عندما يجيء.. ربما استطاعت أن تعيد علاقتها به، وربما أقنعته بعد ذلك بالزواج منها، وعاشا معًا في الجبل تتمتع بجسده القوي، الذي يعيد إليها نشوة الشباب كلما مسها، وتستمر في نفس الوقت في مغامرات "الكحت" باحثة عن كنوز جديدة، دون أن يسخر منها أحد يومًا من الأيام كما فعل حسين، ويقول لها إنها "خوجاية"، وليست من أهل الجبل.

لقد تعرضت للطرد من الجبل أكثر من مرة، ولابد أن تحصن نفسها ضد هذا التهديد المعلق فوق رأسها كالكابوس، طردها العمدة يوم ماتت زوجته مريم، واضطرت إلى أن تتوسل إليه وترتمي عند قدميه باكية، وطردها حسين وهو حزين على والده وشقيقته، ولكنها نجحت في جذبه إليها، وقدمت له جسدها فكان كلما ضمها إليها بذراعيه القويتين، أحست كأنه يضمها إلى الجبل كله، وأنها تخلصت نهائيًا من تهديد الطرد.. ولكن جسدها لم ينجح في مهمته، غضب عليها، وغار من ذلك الرجل الذي تردد على بيتها، ولم تلهب الغيرة حبه، بل أشعلت حقده واحتقاره لها، فكاد يطردها من الحياة كلها، لا من الجبل وحده.

وكلما استرسلت "الخوجاية" في هذه الأفكار، تزايد قلقها واشتدت مخاوفها، ونظرت إلى النقود التي ستشتري بها الكنز لعلها تجد فيها سببًا للاطمئنان.

إن الكنز لا معنى له، بغير هذه النقود، إنهم يريدون الطعام والملابس،

fb/mashro3pdf

والذهب الذي سيحصلون عليه لن يطعمهم ولن يكسوهم، لابد أن يحولوه أولاً إلى نقود.. إلى هذه النقود بالذات، التي تملكها.

إنها قوية بهذه النقود، فلا داعي للخوف إذن، ولتدس النقود في صدرها وتذهب إلى كهف حسين وتنتظر خروجه، وستلوح له بالمال أمام الجميع، وعندئذ لن يستطيع أحد أن يقاومها.

ودست الأوراق المالية في صدرها، واتجهت إلى الباب تريد الخروج، ولكنها تذكرت من جديد، أن حسين رفض أن يأخذ المال عندما عرضته عليه، وكان يستطيع أن ينتهز الفرصة ويخفي جزءًا منه، بعيدًا عن أعين العمدة وأهل الجبل، فيزيد من نصيبه ومن ثرائه.. كيف رفض حسين المال، أية قوة خارقة فيه تجعله يرتفع فوق الحاجة إلى المال، إنها لا تفهمه، ما زال الرجل الذي ضمها معه سرير واحد، غريبًا غامضًا مبهمًا لديها.. إن ملمس جسده العاري، لا يكفي لأن تعرف عنه كل شيء.. وإذا كانت لا تعرف ماذا يدور في رأس حسين، فهي لا تعرف قطعًا ماذا يدور في رؤوس أهل الجبل جميعًا، ما أدراها أن حسين لو رفض المال أمامهم فسيتخلون عنها هم أيضًا، ويضيع منها الكنز والجبل معًا.

خير لها أن تحبس نفسها مكانها، وتنتظر، إنها لا تملك سوى الانتظار الذي يفتت أعصابها، ويدفع بها إلى حافة الجنون.

وانتظرت طوال الليل، وأقبل الصباح وهي واقفة عند بابها المفتوح، تنظر إلى الخلاء أمامها، كأنها أم تنتظر عودة ابنها التائه، عيناها تدوران في محجريهما زائغتان وراء أي شيء قد يخيل إليها أنه يتحرك قادمًا نحوها.. ولكن الشمس ارتفعت، وانتشر ضوء الصباح وهي لا تتلقى أي

fb/mashro3pdf

نبأ.. ورأت عن بعد رجالاً يتحركون، وبذلت جهدًا كبيرًا، وهي تصيح منادية لهم بأعلى صوتها، فلم يلتفتوا إليها، ومضوا في سبيلهم كأنهم لا يسمعونها.

ومر رجل آخر عند الأفق، ونادته صارخة والتفت الرجل إليها، ووقف برهة ينظر ناحيتها، وهي تواصل الصراخ، وتلوِّح بيديها، ثم استدار الرجل مبتعدًا عنها.

ولم تصدق نفسها، خيل إليها أن من تراهم ليسوا رجالاً حقيقيين.. مجرد أشباح في خيالها، إن من عادة رجال الجبل أن يلبوا نداء المستغيث، أن يسرعوا إلى مصدر أي نداء، فما بالهم لا يكترثون بصراخها.. إن من تراهم ولا شك، أشباح.. أو.

وفزعت للخاطر الذي برق في رأسها.. هل بيتوا لها أمرًا.. هل حصلوا على المال.. هل حدث هذا؟

وجرت عبر حديقتها الصغيرة، حتى وصلت إلى بابها وتقلصت يدها على الباب، لا تجسر على فتحه والخروج منه، طغى عليها ذلك الخوف الذي سهر في قلبها طوال الليل، وأيقنت أنهم سيقتلونها في اللحظة التي ستعبر فيها باب الحديقة، إنهم يحاصرونها الآن، وهم مختفون خلف الصخور، وعندما تتقدم في العراء ستطير رصاصة في الهواء وتستقر في قلبها أو دماغها.

وغيم اليأس القاتل على عينيها، إنها لا تطيق القتل على هذا النحو.. ليتها تركت حسين يقتلها، قتْلها في ذلك الوقت كان شيئًا مفهومًا..

fb/mashro3pdf

أما مصرعها في العراء برصاصة تنطلق من مكان مجهول، فأمر غامض فظيع لا تستطيع أن تتحمله.

وتذكرت فجأة باريس التي كانت تعيش فيها وهي صغيرة وزوجها عالم الآثار الذي أتى بها إلى هذا المكان، وودت لو أنها تصرخ فيسمعون استغاثتها في باريس.. أو في الشاطئ الشرقي.. هناك في الشاطئ الشرقي، الرجال الذين ينتظرون الكنز لتهريبه، ستقبع في دارها، وتقفل الأبواب وتنتظرهم حتى ينتابهم القلق على الكنز وعلى المال الذي سلموه إليها، فيسعون وراءها، ويأتون لإنقاذها.

ودخلت البيت، وأغلقت عليها الأبواب والنوافذ، وانكمشت واقفة في أحد الأركان، تنتفض وترتجف رعبًا.

ومضى وقت لا تعرف أكان ساعات أم دقائق ثم سمعت طرقًا على الباب.

وجرت إلى الباب والتصقت به.. ولكنها لم تجب.

واستمرت الطرقات على الباب.. وقد شعر الطارق بحركتها وهي تسرع مندفعة إلى الباب وتلتصق به.

وارتفع صوت امرأة.

– افتحي يا "خوجاية".

وهمست "الخوجاية" بصوت لاهث مسموع:

– أنت مين؟

وجاء الصوت واضحًا عبر الباب:

– أنا مسعدة.. أخت الشيخ طلباوي.

fb/mashro3pdf

وترددت "الخوجاية" في فتح الباب لهذه الزائرة التي لم تتعود استقبالها في بيتها، أتكون هذه الفتاة هي بداية كمين معد لإخراجها من البيت؟

ورفعت "الخوجاية" صوتها المنفعل.

- جاية غرضك إيه يا مسعدة؟

فأجابت مسعدة في نفاذ صبر.

- بجولك افتحي الباب.

ودقت الفتاة بيدها على الباب في الخارج فانهارت مقاومة "الخوجاية"، وفتحت الباب يائسة.

ووقفت مسعدة مكانها حائرة، تنقل عينيها بين "الخوجاية" وداخل البيت، وهي تنتظر كلمة ترحيب، أو دعوة إلى الدخول فيصدها وجوم "الخوجاية".. وشحوب وجهها.. وعيناها الزرقاوان الباردتان، اللتان لا تفصحان عن أي معنى.

وقالت مسعدة في ارتباك:

- غرضي أجولك كلمتين سر.

وارتجفت "الخوجاية"، فزعت من "كلمتين سر" وفكرت في إغلاق الباب في وجه مسعدة، توقعت أن تستدرجها الفتاة خارج البيت ليقتلوها بالرصاص ويتخلصوا منها، ولكنها شعرت بالحنين إلى صوت مسعدة، إنه يشعرها بأنها ليست وحدها.. ليست منبوذة محبوسة في بيتها.. ثم صوت مسعدة يستطيع أن ينبئها بمصير الكنز.

fb/mashro3pdf

وقالت "الخوجاية" في صوت ضعيف:

– ادخلي.

وتقدمت مسعدة إلى داخل البيت، وأسرعت "الخوجاية" بإغلاق الباب وراءها.. وأشارت إلى مقعد، ودعت مسعدة إلى الجلوس عليه وهي تسألها:

– أنت أخت الشيخ طلباوي؟

وأجابت مسعدة وهي تجلس القرفصاء إلى جانب المقعد بينما جلست "الخوجاية" على مقعد آخر.

– أيوه.

و لم تهتم "الخوجاية" بجلوس مسعدة القرفصاء، اعتادت رفض نساء أهل الجبل الجلوس على المقعد كلما جئن إلى بيتها، يطلبن منها معالجة عيون أطفالهن.

وبحثت "الخوجاية" عن وسيلة تسأل بها عن الكنز.. إنه أمر طبيعي أن تسأل عما حدث، فهي مشتركة في الكحت بمالها ولكنها حذرة خائفة، قلبها يحدثها أن "حسين علي" أقنع أهل الجبل ألا يسلموه لها.

وأطرقت "الخوجاية" ولاذت بالصمت، حتى سمعت مسعدة تقول لها في خجل، وهي تعبث بإصبعها في مسند المقعد.

– أنا حاتجوز يا "خوجاية".

ورفعت "الخوجاية" رأسها، ونظرت إلى الفتاة في ذهول.

fb/mashro3pdf

أيمكن أن تكون هذه الزيارة بريئة.. وليست كمينًا كما تتوقع.. ومرت بها لحظة خاطفة من الطمأنينة، وانتهزت هذه اللحظة فتجاهلت كلام مسعدة، وسألتها في لهفة وعصبية:

– العمدة وحسين فين يا مسعدة.. لجو الكنز.. عملوا إيه؟

ودفست مسعدة رأسها في صدرها، ووضعت يديها على أذنيها، كأنها لا تريد أن تسمع ما تقوله.

– ملجيوش حاجة.. لجيو بير.

وصرخت "الخوجاية" في شراسة، وهي تنتفض واقفة:

– بير.. بير كيف.. أنت كدابة.. كلتكم كدابين.. فلطمت مسعدة بكفيها على أذنيها وصدغها وقالت في حرقة:

– يا ريتني كدابة.. يا ريتني كدابة.. كلتهم جالوا كده.. ولا واحد صدج العمدة وحسين.. كلتهم دخلوا الكحت وشافوا البير.. وطلعوا.. محدش بيصدج إلا لما يشوف بعينيه.. الرجالة والنسوان والعيال.. كلتهم بجو زي الواد سلماوي المجذوب.. روحي شوفي بنفسك.. روحي يا "خوجاية".

فنظرت إليها "الخوجاية" في ريبة.. هذا هو الكمين الذي أعدوه لها، يريدون استدراجها إلى السرداب، ليفتكوا بها هناك ويستولوا على مالها، بعد أن استولوا على الكنز.

وصاحت "الخوجاية" في غضب:

– أنا موش خارجة من بيتي لحد ما يجيني حسين.. روحي لحسين، وجوليله يعدي عليَّ دلوقيت.. حالاً.

fb/mashro3pdf

و لم تتحرك مسعدة من مكانها كأنها لم تسمع طلبها، ونظرت إليها في تصميم، وقالت في صوت حاد:

– اسمعي كلامي الأول يا "خوجاية".

وهتفت "الخوجاية" كالمجنونة.. وهي تنقض على مسعدة وتجذبها بيديها، لتنهض:

– انهضي يا بت.. موش ح أسمع حاجة، وموش ح أجول حاجة لحد ما ييجي حسين هنا.

وفوجئت "الخوجاية" بمسعدة تقف وتمسك بها بيدين قويتين، وتدفعها إلى المقعد الذي كانت جالسة عليه، وتضطرها إلى الجلوس، وهي تقول في تصميم حديدي:

– جلتلك اسمعي كلامي.. الكنز ولجيناه بير.. ح نجعد نبكي عليه.. ياما بكينا.. والجبل ما انتجلش من مطرحه.. الكنز لسه جواه.. أنا خايفة حسين يطفش، يروح الواحات والا يركب اللوري على بحري ما يرجعش واصل، ولا نتجوزش.

واستمعت "الخوجاية" إلى كلام مسعدة في غير فهم. كانت تنظر إليها مذعورة وعيناها الزرقاوان مشدودتان إلى عينيها السوداوين، وهي لا تكاد تصدق أن مسعدة فتاة واحدة.. إنها تتكلم وكأنها جيش من النساء لا تستطيع أن تصمد أمامه.

ومضت مسعدة تقول وقد رأت "الخوجاية" مستكينة مستسلمة.

– جيت لك علشان تشتري لي..

fb/mashro3pdf

وسكتت مسعدة لحظة، وهي تدس يدها في صدرها، ثم استأنفت تعدد ما تريد شراءه وهي تخرج صرة معقودة وتفكها بأصابعها في عصبية.. كانت تريد شراء حلق، وزجاجة عطر، وبعض الأقمشة الحريرية، وأفلحت في فك العقد الكثيرة وأخرجت من الصرة أوراقًا مالية من فئة الجنيه، والخمسين والعشرة قروش والخمسة قروش، ومعها نقود فضية ومعدنية، مدت بها يدها إلى "الخوجاية".

واستولت الدهشة على "الخوجاية".. وهي لا تصدق ما تراه.. لم تعد تصدق أي شيء.. إن معها نقودًا كثيرة تريد إعطاءها لأهل الجبل، فإذا بفتاة فقيرة منهم، تأتي إليها وتقدم لها نقودًا!

وهزت رأسها في إنكار، وتراجعت أمام منظر النقود الممدودة إليها، كأنها نقود مسحورة، تخشى أن تلمسها.

وصاحت في فزع:

– الفلوس دي بتاعت إيه.

فقالت لها مسعدة في صبر:

– دي الفلوس اللي ح تشتري بيها الحاجة.

وسألت "الخوجاية" في غير فهم:

– حاجة إيه؟

وتنهدت مسعدة، وبدأت تروي لها من جديد، في صوت هادئ، رغبتها في الاستعداد للزواج بـ "حسين علي".

واستمعت إليها "الخوجاية" هذه المرة، وفهمت كل كلمة قالتها.. نفذت كلمات مسعدة في أذنيها، وكأنها خناجر حادة تنغرس في عظام رأسها.

fb/mashro3pdf

"حسين علي" سيتزوج هذه الفتاة التي تقف أمامها، وهي تريد منها أن تشتري لها معدات الدخلة.. "حسين علي" قد ضاع منها.. والكنز ضاع، حصلوا عليه، ثم جاءت هذه الفتاة لتكذب عليها، ولتقول إنهم وجدوا بئرًا.. من أين جاءت هذه الفتاة بالنقود، باعوا الكنز لآخرين، وحصلوا على المال. وهذا هو بعض نصيب الفتاة منه.. نبذوها.. سخروا منها. لم يعد لها مكان بينهم.. أين تذهب.. إلى من تلجأ؟

وقاومت "الخوجاية" أفكارها بصعوبة.. وبذلت جهدًا كبيرًا لتضبط أعصابها، ولتحتفظ بعقلها متزنًا، وسألت مسعدة في هدوء مصطنع:

- مين أعطاكي الفلوس دي؟

وأجابتها مسعدة في صوت مليء بالأسى:

- دول أربعة جنيه وتلاتين جرش وتمانية ميلم.. حوِّشتهم في تسع سنين.

وقاطعتها "الخوجاية"، انهارت مقاومتها وأفلت زمام أعصابها... زعقت فيها:

- دا نصيبك م الكنز يا كدابة.. جوليلي بعتوا الكنز لمين يا حرامية.. يا أشرار؟

ولم تجزع مسعدة من اتهامها.. وحاولت أن تشرح لها ببساطة، كيف ادخرت كل هذه النقود، واختلط صوت المرأتين.. "الخوجاية" تسترسل في السباب.. ومسعدة تتكلم في هدوء وصبر، موضحة لها كيف جمعت نقودها من ثمن الأطباق القش التي باعتها يومًا ما "للخوجاية"، وتلوح بأحد الجنيهات وهي تذكرها أنه نفس الجنيه الذي أعطته لها وعليها أن

fb/mashro3pdf

تفحصه لتتأكد من ذلك. وهذه الخمسون قرشًا أخذتها من شقيقها الشيخ طلباوي عندما جاء لأول مرة بعد تعيينه في أسيوط، وهذا الريال أخذته منه في العيد الكبير منذ ثلاث سنوات، وهذه العشرة قروش أخذتها من أحد السواح بعد أن التقط لها صورة فوتوغرافية، وتوقفت مسعدة عن شرحها، إذ تحول سباب "الخوجاية" إلى لغة غير مفهومة.. يصحبها بكاء، تطور إلى عويل وتشنجات حادة.

واقتربت مسعدة منها تريد أن تربت عليها وقد تأثرت لبكائها، ولكن المرأة هجمت عليها تصفعها وتضربها في ضراوة وعداوة.

وجرت مسعدة خارجة من البيت وهي على يقين أنها جنت.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل التاسع

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

وعلم أهل الجبل من مسعدة، أن "الخوجاية" قد جنت، فأسفوا عليها.. ورثوا لحالها، وطلب العمدة من حسين أن يذهب معه إليها ليريا ما أصابها، ووافق حسين، واتجه الاثنان إلى بيتها.. وعلى الرغم من أنهما وصلا بعد عودة مسعدة بقليل، فإنهما لم يجداها في البيت، وقال لهما أحد الرجال إنه رآها تجري نحو الشاطئ الشرقي، وهي تحدث نفسها بكلام غير مفهوم..

ووصلت بعد ذلك أنباء من الشاطئ.. أنها عبرت النيل إلى الأقصر وكانت تبكي وتضحك وتتكلم بلغتها غير المفهومة مع المراكبي.. وما كادت المركب تقترب من الشاطئ، حتى قامت تريد أن تقفز منها، وهي تظن أنها تستطيع بلوغ الأرض لولا أن أمسك بها المراكبي، ولم يطلقها من يديه حتى وصلت المركب إلى الشاطئ فعلاً، فانفلتت منه، وجرت لا تلوي على شيء.

وانتظرت مسعدة عودة العمدة وحسين.. ورأت حسين يأوي إلى كهفه، والعمدة يواصل السير، فذهبت إليه، وحدثته عن خوفها من هروب حسين من الجبل، وطلبت منه أن يكلف أحدًا من الرجال بالذهاب إلى الأقصر، ليشتري لها ما تريده، وليكتب خطابًا يرسله إلى شقيقها في أسيوط، ليستدعيه فورًا لعقد زواجها في الحال.

fb/mashro3pdf

وقالت مسعدة للعمدة في صوت قوي جريء:

– لو حسين متجوزش يا عمدة.. ح يطفش م الجبل وما عدناش نشوفه واصل.

وأمَّن العمدة على كلامها، وقال لها إن هذا هو رأيه أيضًا، وعجب العمدة لقدرة مسعدة على التفكير في الزواج في مثل هذا اليوم وتصميمها على إتمامه بسرعة، ولكنه اعترف بينه وبين نفسه، أنها على حق، فربما كان الزواج هو الوسيلة الوحيدة للإبقاء على "حسين علي" في الجبل بين أهله.. كيف استطاعت مسعدة أن تفكر وتتصرف بمثل هذا الصفاء، بعد لحظات من وقوع الكارثة التي هزت الرجال جميعًا.. وهزته هو أيضًا.

وتأمل العمدة وجهها الصريح، فتذكر وجه أخيها الشيخ طلباوي.. نفس تقاطيع الوجه الوسيم.. تزيد عليه أنوثة وكبرياء.. نفس الطموح والجرأة عند الاثنين.. الطموح الذي دفع الشيخ طلباوي إلى الفرار من الجبل وهو صبي صغير، ليذهب إلى أسيوط، حيث يتعلم ويصبح موظفًا في الحكومة يتكبر على أهله، ويتنكر لحياة الجبل، ويريد أن يفرض سيطرته على شقيقته ليأخذها معه إلى أسيوط، هو نفسه الطموح الذي دفع بمسعدة في طريق مناقض تمامًا للطريق الذي سار فيه أخوها.. فتمسكت بالجبل، ورفضت عروض شقيقها، وتحدته حتى لا تذهب إلى أسيوط.. طموح الرجل جعله يهجر أهله.. ويعيش في المدينة ويتزلف للكبراء الأغنياء،

fb/mashro3pdf

وطموح المرأة جعلها تتمسك بأهلها، وتعيش في الجبل، وتحلم بالزواج من حسين، أحسن شباب الجبل.

وابتسم العمدة، وهو يسترسل في أفكاره، متأملاً وجه مسعدة، وطافت برأسه صورتها عندما كانت تأتيه باكية تدعك عينيها المحمرتين، وتشكو له أخاها، لأنه يهددها ويضربها ليضطرها إلى الذهاب معه إلى أسيوط.

كان يقول لها أول الأمر:

– اسمعي كلام أخوكي يا بت. إحنا منعرفش نسوان يعصوا كلام رجالتهم.

فتزغر فيه بعينين شرستين وتقول له في صوت مفترس:

– لا.. يجتلني ولا عديش معاه على أسيوط.

ولولا أن الشيخ طلباوي لا يستطيع أن يقتل، بعد أن أخذ مظهر رجال الدين الأتقياء، لكان قتلها من زمن، ولولا أنه فزع من صراخها وبكائها، واستعدادها للشجار معه بأظافرها وأسنانها لما تركها، ولانتزعها انتزاعًا وحملها معه.

وبقيت مسعدة يتيمة وحيدة، تصنع أطباق القش، وتعيش مع عمتها العجوز التي هجرها زوجها منذ عشرين عامًا أو أكثر.

واستمعت مسعدة آلاف المرات إلى قصة زوج عمتها، وهي ترويها لها كل ليلة منذ كانت طفلة صغيرة، إنها قصة تتكرر مع نساء كثيرات في الجبل.. يأتي صباح يوم، فتجد الواحدة منهن زوجها قد اختفى.. فتمضي

fb/mashro3pdf

بقية حياتها ترقب الأفق البعيد لعلها تراه قادمًا.. ولكنه لا يعود.. وهي لا تيأس.. وكرهت مسعدة ذلك المكان البعيد وراء الأفق، حيث يختفي الرجال، ولم تشعر بالطمأنينة طوال حياتها وهي تنظر حيث الشمس تغيب أو تشرق، كأن الحزن يطغى عليها فتتلفت حولها إلى صخور الجبل وكهوفه وأهله، تلتمس في منظرهم الطمأنينة والحنان، واعتادت مسعدة أن تنتظر هي الأخرى زوج عمتها ولكنه لا يعود.. وتنتظر يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة.. كل صباح وكل مساء ترقب الأفق وكان يخيل إليها أنه سيجيء ومعه أبوها وأمها من عالم الأموات.

وسألت مسعدة أحد الأيام العمدة: هل صحيح أن "المساخيط" سيبعثون من جديد؟ فأكد لها أنهم سيبعثون وسيعودون إلى الحياة، ولذلك يحتفظون في مقابرهم بطعامهم وأموالهم، وتحتفظ النساء بحليهن وجواهرهن.

وأطرقت مسعدة بعد أن استمعت إلى كلام العمدة، ثم رفعت رأسها وقالت له وكأنها في حلم:

– طول ما عمتي مستنظرة جوزها.. وأنا مستنظرة أبوي وأمي يرجعوا معاه حدانا.

ومنذ ذلك اليوم، وقف العمدة في صفها ضد أخيها الشيخ طلباوي.. خفق قلبه بحب أبوي لها، وأيقن أنها لن تكون سعيدة أبدًا لو تركت الجبل حيث تنتظر وتحلم، وذهبت إلى أسيوط حيث تعمل خادمة في بيت أخيها، مهانة ذليلة، بلا حلم ولا أمل.. أحس العمدة أن هذه الفتاة تحب

fb/mashro3pdf

الجبل موطن أهلها بنفس قوة حبه، وشعر أن الدم الذي يجري فيها هو نفس الدم الذي يجري في عروقه.. وتمنى لو كانت كل نساء الجبل، وكل رجاله مثلها.

وحوَّل العمدة عينيه عن مسعدة، رقد غمره حنان كبير واعتراف لها بالجميل لأنها احتفظت بحبها للجبل في اللحظة التي خانهم فيها الجبل، ثم عاد ورمقها في إعجاب وثقة، كأنه يريد أن يعوض بنظراته إليها كل الاحتقار الذي تفيض به عيناه عندما تقعان على أخيها الشيخ طلباوي.

وقال لها العمدة في هدوء:

– اطمني يا بت.. ربنا يتمم كل حاجة بخير.. بإذن الله.

وانصرف عنها مبتعدًا، والراحة تملأ صدره.. لم يتوقع أن يحس بهذه الراحة سريعًا بعد مفاجأة السرداب، ولكن مسعدة منحته ثقة كان في أشد الحاجة إليها.. طمأنته قبل أن يفيق من الصدمة.. طمأنته قبل أن يخلو لنفسه ويقلق.

وحث العمدة خطأه، وأسرع رافعًا قامته، كأنه يشعر بعيني مسعدة تراقبانه وترسلان إليه شعاعًا من العزم والتصميم، وملأ رئتيه بالهواء في كبرياء، وهو يفكر في "الخوجاية" التي فقدت عقلها لضياع الكنز، ومسعدة التي صفا عقلها لضياع الكنز.

وكاد يتمتم بصوت مسموع محدثًا نفسه، كلتنا شداد، نسواننا ورجالتنا شداد.. ح نصبروا على البلا.. إحنا منوطيش يا بوي.

fb/mashro3pdf

وكانت مسعدة تراقب العمدة فعلاً وهو يبتعد عنها، ولكن بعين واحدة.. العين الثانية كانت مشغولة بمراقبة كهف حسين، قررت أن تحرس الكهف، فإذا خرج حسين منه تبعته وإذا رأته يبتعد عن الجبل ويمضي إلى ذلك الأفق الذي يختفي وراءه الرجال، فستصرخ وتستغيث بالرجال ليلحقوا به، وستكون أول من يتعلق به بأظافرها وأسنانها، ولن تدعه يفلت أبدًا.

وظلت تراقب الكهف، حتى جاء أحد الرجال ينادي على حسين، ويقول له إن العمدة يريده.

وخرج حسين من الكهف، ولمح مسعدة تجلس عن بعد، فلم يبد عليه أنه يكترث لرؤيتها، ومر بجانبها دون أن يلتفت إليها، مسعدة في قرارة نفسها، كانت تعلم عن يقين أن العمدة يناديه، ليعلنه بضرورة الإسراع بالزواج منها و لم تشعر بقلق أو خوف.. كأنها مطمئنة تمامًا إلى مصيره إليها.

***

ووصل الشيخ طلباوي قادمًا من أسيوط بعد أربعة أيام وكان يومًا مشهودًا من أيام الجبل، فقد عادت في نفس اليوم "الخوجاية" بعد غيابها الطويل في الشاطئ الشرقي.

وتناقل أهل الجبل في دهشة ما صنعته "الخوجاية" عندما مرت بالمهندس في القرية النموذجية، وأمسكت بملابسه تريد أن تمزقها وهي تدفعه تريد

fb/mashro3pdf

طرده هو ورجاله من القرية، معلنة أنها قد نصبت نفسها حامية لأهل الجبل، وحامية للإنسانية من أن تتدهور تحت زحف المدنية الفاسدة.. ولم يفهم أهل الجبل ما قالته "الخوجاية" في الدفاع عنهم، ولكنهم علموا أنها مستعدة لكل شيء.. حتى القتال من أجلهم، ورحبوا بما فعلته "الخوجاية".. ولكن الدهشة والعجب ظلا مستقرين في نفوسهم، يصحبهما شك لم يصل إلى حد اليقين، في أن "الخوجاية" تتصرف عن شذوذ أو جنون.

وأكد شذوذ "الخوجاية"، تصرفاتها الأخرى، فبعد أن انتهت من شجارها مع المهندس، تركته فجأة في طريقها إلى بيتها فصادفها أثناء سيرها معاون القرية النموذجية، وهو يصطاد العصافير ببندقيته، وهجمت عليه "الخوجاية"، وانتزعت منه سلاحه على غرة، وصوَّبته إلى الرجل، تريد قتله.. وهي تقول له في جنون:

- أموِّت واحد زيك بدل ما سيبك تموت ألف عصفورة، فصاح المعاون متوسلاً وقد استولى عليه الذعر:
- لكن دول عصافير يا "خوجاية".
- عصافير أحسن منك.. العصافير ما تقتلش حد.

وأدرك المعاون أنه أمام مجنونة، وأنها ستقتله حتمًا، فحاول الاعتذار، ووعدها أنه لن يقتل العصافير أبدًا، وطلب منها أن تحطم بندقيته، واستمر في توسلاته حتى اقتنعت أخيرًا بأنه صادق في توبته فحطمت البندقية،

fb/mashro3pdf

ثم طلبت منه أن يعطيها العصافير التي اصطادها لتدفنها.. وأعطاها المعاون العصافير ونجا بجلده.

كان أهل الجبل يتناقلون هذه القصة.. وسؤال واحد يتكرر على لسانهم يرددونه ضاحكين ساخرين، عمَّا إذا كانت "الخوجاية" تدافع عنهم لأنها تظنهم عصافير.. أم هي تدافع عن العصافير لأنها تظنها من أهل الجبل؟

ومع ذلك لم يضحك أحد عندما جاءتهم "الخوجاية"تزورهم بعد عودتها إلى بيتها، قالت لهم كلامًا أفزعهم، وروت لهم أن المهندس هددها بأنه سينقل الجميع حالاً مستعينًا بقوة البوليس، وكانت تتكلم بصوت مرتفع كأنها تلقى خطبة، ولم توجه كلامها إلى أحد بالذات ولم تقع نظراتها على رجل معين لا العمدة، ولا حسين، ولا أي رجل آخر، كانت نظراتها واسعة مرتفعة فوق الرؤوس، ومضت تثير الفزع بكلامها أينما وجدت جماعة من الرجال والنساء أو الأطفال.. وحتى وهي تسير وحدها عائدة إلى بيتها، كانت تواصل رواية شجارها مع المهندس كأنها تريد إثارة صخور الجبل.

والتفت أهل الجبل حول العمدة بعد ذهاب "الخوجاية"، وقد أقبل الليل، وسادهم الوجوم، وظلوا ساهمين حتى انفجر "حسين علي" فجأة، وفي صوته كل المرارة التي يختزنها من فشله في الكحت، صاح فيهم قائلاً:

- أنا ح أحرج البنايات.

fb/mashro3pdf

ولم يعترض أحد على حسين، بل اقتربوا منه صامتين، كأنهم يريدون التعبير عن موافقتهم، وعن رغبتهم في المشاركة وفي التنفيذ.

وفي تلك اللحظة أقبل الشيخ طلباوي قادمًا من جوف الليل، وما كاد يرى الجميع حتى ظنهم يتشاورون في أمر زواج أخته مسعدة من "حسين علي"، كان هذا الزواج هو كل ما يشغل رأسه، وقد أعد هجومًا على حسين وعلى حياة الجبل وتعاستها.

ولكن العمدة أسرع بتوريط الشيخ طلباوي في مشكلتهم بمجرد أن ألقي عليهم التحية.

وظن الشيخ طلباوي أن هذه المشكلة ستساعده في عرقلة الزواج، فقال وهو يكتم فرحه.. وقد تلون صوته بشماتة يحاول إخفاءها:

- وح تعملوا إيه.. سلموا أمركم لله

فصاح أحد الرجال:

- "حسين علي" ح يحرج البنايات.

وصعق الشيخ طلباوي وهتف على الفور:

- أدي آخرتها.. شقيقتي لن تتزوج مجرمًا.

وتلفت الشيخ حوله ليرى وقع كلماته العربية الفصيحة في نفوس الرجال، وسرعان ما أدرك أنه ارتكب خطأً جسيمًا. كانت العيون تنظر إليه مهددة تكاد تقذف بالشرر، وزاد شعوره بخطورة موقفه.. عندما رآهم صامتين لا يريدون مناقشته.. كأنهم عقدوا العزم على الحريق..

fb/mashro3pdf

وعلى الفتك به إذا اعترضهم.. وتململ الشيخ طلباوي وانكمش داخل جبته، وبدأ يبحث عن مخرج للمأزق الذي وقع فيه، أراد أن يقول أي شيء وأن يسمع منهم أي كلام، وقال فجأة:

- ما تكتبوا شكوى للحكومة؟

وقطع "حسين علي" قصته التي يرويها لي عند هذا الحد ونظر إليَّ وكأنه يقول لي "أنت عارف الباقي".

وكانت الشمس تبزغ عند الأفق البعيد.. ونور الصباح ينتشر سريعًا في كل مكان، يطاردني ويدفعني وأنا أسير بخطوات متعثرة، وجسد يكاد الإرهاق يهلكه، في الطريق الطويل إلى القرية النموذجية.

بدد الضوء رغبتي الجامحة في البقاء، وكشف لي حقيقتي وهي أنني لست من أهل الجبل، ولابد من عودتي إلى العالم الذي جئت منه.. وكان تعبي والألم في ضلوعي، وتضعضع قوى جسدي، حقائق تصرخ داخلي، أني لابد أن أعود.

ورغم ذلك تشبثت بلحظات أخيرة أقضيها في الجبل وأسمع فيها صوت "حسين علي".

سألته في صوت ضعيف مكدود:

- أنت مبسوط من جوازك يا حسين؟

فضحك قائلاً:

- الحمد لله.

وبان التردد عليه، قبل أن يقول وكأنه يهمس إليَّ بسر:

- تعرف مرتي بتجول إيه؟

fb/mashro3pdf

وسكت وقد زاد تردده.

فسألته، وأنا ألمح من بعيد مباني القرية النموذجية:

- بتقول إيه يا حسين؟

فقال بصعوبة:

- بتجوللي كل ليلة.. يا حسين إن غرضي تتموا الكحت.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل العاشر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

وصلت إلى القرية وأنا بين اليقظان والنائم، أتلمس طريق خطواتي بصعوبة وأكاد لا أتذكر من أين أتيت، وإلى أين وصلت، وكل همي أن أرى شيئًا يصلح لأن ألقي عليه جسدي وأنام.

ورأيت من خلال جفوني النصف مغمضة، المهندس قادمًا نحوي في عباءته الخضراء.. يسبقه صوته وهو يقول في انفعال:

– أوه يا ربي.. أوه.. لا لا.. أوه يا أستاذ فتحي.. موش ممكن.. موش ممكن يا ربي.

ويبدو أن منظري كان مخيفًا، ذقني طويلة خشنة، وملابسي متسخة وشعري منكوش، وعيناي منفوختان محمرتان.. وجسدي يتطوح في الهواء مع كل خطوة متعثرة أخطوها.

و لم أستطع مواصلة الإنصات لتأوهات المهندس، كان صوته يطن حولي بلا معنى.. وطرقت أذني كلمات وجمل متقطعة.. افتكرتك رجعت الأقصر.. عملوا فيك حاجة.. تحب تفطر.. أوه يا ربي.. واستمرت الكلمات تلاحقني حتى وصلت إلى باب الغرفة التي قضيت فيها الليل من قبل فقلت له بصوت لاهث:

– أنا رايح أنام.

فسأل في لهفة:

– لكن إيه اللي حصل:

fb/mashro3pdf

فأجبت بلا وعي:

– بعدين.

وفتحت باب الغرفة، فرأيت السرير عن قرب وأغلقت الباب خلفي، ولعلي أغلقته في وجه المهندس، وألقيت بجسدي على السرير.. ونمت..

واستيقظت عدة مرات أثناء نومي، فتحت عيني أول مرة، وتذكرت "حسين علي"، وهو يقول لي قبل أن أودعه، إن زوجته تلح عليه كل ليلة في أن يتم الكحت، و لم أعقِّب على كلامه بشيء في ذلك الوقت، ولكني الآن وأنا راقد على السرير، أريد أن أقول له أشياء كثيرة عن الكحت.. رأسي مليء بكلام غير واضح، أشبه بالهذيان.

قلت لنفسي.. كان يجب أن أنصح حسين بإبلاغ مصلحة الآثار بمكان الكنز.. فيتولى رجالها فتح المقبرة الفرعونية.. وستحدث ضجة عالمية، مثل التي وقعت بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وسيأتي آلاف السياح الجدد، كل عام لمشاهدة المقبرة الجديدة، وفي نفس الوقت، تقوم نساء الجبل بإعداد أطباق القش، ويقوم الرجال بصنع التماثيل، ويقيم أهل الجبل معرضًا دائمًا لمصنوعاتهم، ويبيعون منها العشرات كل يوم للسياح.. إنهم يصنعون أشياء جميلة حقًا ولا ينقصها سوى الناس الذين يشترونها، وأمامهم فرصة ذهبية، ليأتي إليهم الناس من جميع أنحاء العالم.. فرصة الإعلان عن كشف مقبرة جديدة في المنطقة التي يسكنون فيها أن الكنز الفرعوني لن يتبدد.. ولن يشتريه مهربو الآثار بثمن بخس. بالعكس، سيصبح الكنز دعاية لا تقدر بمال لأهل الجبل ولصناعتهم.

fb/mashro3pdf

وتخيلت "حسين علي" يستمع إلى هذا الاقتراح، ويتردد في الاقتناع به.. وينظر إليَّ حذرًا. ثم يطلب مني ناصحًا.. أن أكتم هذا الاقتراح بين ضلوعي، وألا أبوح به لأحد، لأن مجرد التصريح به بين أهل الجبل، أمر خطير غير مأمون العواقب، إنهم لا يثقون في رجال الآثار، ولا يطمئنون إلى معاملتهم، فكيف يلقون بين أيديهم بالكنز الذي هو كل أملهم؟

وتقلبت في فراشي، والنوم يكاد يطغى عليه، لولا بريق صور تتتابع كأنها حلم، أرى خلالها أهل الجبل، وهم يفتحون المقبرة فعلاً، ويصلون إلى الكنز، و"الخوجاية" التي لم تعد تطمئن إلى "حسين علي"، قد تآمرت مع بعض الرجال ليستولوا على الكنز وحدهم، ويحصلوا على ثمنه منها دون أن يوزعوه على الجميع بعدل الله، كما يقول العمدة دائمًا.. إن المهربين من مصلحتهم دائمًا الاتفاق مع بعض الرجال.. على أن يساوموا أهل الجبل جميعًا على ثمن الكنز.

وتخيلت معركة تدور بين "حسين علي" والرجال الذين اتفقوا مع "الخوجاية".. وخلال المعركة يؤمن حسين بأن الكنز يثير الأطماع.. ويؤدي إلى التقاتل.. وإلى استغلال مهربي الآثار لهم.. وأن خير شيء لأهل الجبل، هو أن يبلغوا الحكومة عن الكنز.. وسيتذكر حسين نصيحتي التي قلتها له.. وهي أن ينتهز فرصة إقبال الناس على منطقتهم، بعد اكتشاف المقبرة ويصنعوا التماثيل والأطباق القش.. وسيحدث أهل الجبل عن هذه النصيحة، وسيضيف عليها، أن تسليمهم الكنز للحكومة، سيلفت الأنظار

fb/mashro3pdf

إليهم، ويجعل الناس تهتم بمشكلتهم، وعندئذ يطالبون الحكومة بصوت قوي، بأن تهيئ لهم فرصة العمل.

واسترسلت في أحلامي..

أهل الجبل يقتنعون بكلام "حسين علي".. خشية أن يستمر القتال بينهم.. وصورة وفد يتقدمه العمدة وحسين، يعبر النيل إلى الشط الشرقي، ويذهب إلى مركز البوليس ليبلغ ضابطًا أصابه الذهول، أنهم جاءوا ليسلموا الحكومة كنزًا يقدر بملايين الجنيهات.. والجبل مزدحم بعلماء الآثار والسياح.. والفتيات يجلسن يبعن أطباقهن الجميلة، والرجال يبيعون تماثيلهم.

هذا هو الكنز الحقيقي الذي اكتشفه أهل الجبل، تماثيلهم التي يصنعونها بأيديهم هي الكنز الحقيقي.. هي الآثار الحقيقية.. إنها ليست مزيفة.. لأنها من صنع أيديهم.. لأنها نتيجة لعملهم لأنها ترمز للعمل.. العمل هو الكنز الحقيقي..

وانطلقت مع أحلامي.. الحكومة تقتنع بضرورة تشييد مصانع للتماثيل وللنسيج لرجال ونساء الجبل.. وتقام المصانع الجديدة.. المصانع التي هي الكنز الذي كانوا يبحثون عنه دائمًا.

وتقلبت فجأة في فراشي.. وأنا أحس بانقباض في صدري، ما هذا الهذيان الذي يدور في رأسي.. ما هذا التخريف؟

هل تصنع الحكومة كل هذه الأشياء لأهل الجبل.. إن صورة الحكومة مرتبطة في ذهن العمدة بلقائه بالأميرة السكرانة في القرية النموذجية.. إنه

fb/mashro3pdf

لم يفلح في التفاهم مع الأميرة أخت الملك.. الحكومة هي البوليس الذي يريد انتزاعهم قسرًا من كهوفهم.. ليلقى بهم في بيوت لها قباب كالمقابر.. الحكومة ليست حكومتهم.. إنها لا تفكر إلا في السيطرة عليهم.. ولا شيء في الوجود يقنعهم بأنها ستحسن معاملتهم لو سلموها الكنز.. بل هي ستتخذ تسليمهم للكنز حجة ضدهم، فتحاكمهم لأنهم كحتوا الجبل بغير إذن منها، هذا هو منطق القانون منطق الحكومة.

إني أهذي.

وتذكرت مسعدة، في تلك اللحظات القليلة التي رأيتها فيها، وهي تكذب عليَّ لأنني من رجال الحكومة.. وتقول لي إن زوجها حسين غائب في الواحات.. إنها لا تطمئن على زوجها مع رجل من الحكومة.

وأغفيت.. و لم أعد أحلم بشيء.. وتهت عن العالم من جديد.

وفتحت عيني للمرة الثانية، لأسمع صوت امرأة عجوز تتحدث بالفرنسية، وكانت تقول "اقتراح مدهش يجب تنفيذه فورًا" وعجبت للصوت الذي يأتي من خارج غرفتي، وخيل إليَّ أنها تتكلم عن أحلامي عن أهل الجبل.. ثم سمعتها تقول.. "إني مقتنعة تمامًا أن هذه القرية تصلح أن تكون فندقًا عالميًا للسياح".

وجعلني صوت السيدة أظن أني نائم في مركب، لست أدري لماذا.. ونمت من جديد.

وفي المرة الثالثة، فتحت عيني ودرت بها مستطلعًا الحجرة التي أنام فيها، وبذلت جهدًا كبيرًا حتى تذكرت أني نائم في القرية النموذجية،

fb/mashro3pdf

ولمحت مرآة مثبتة على الحائط خلفي، وأمضيت وقتًا طويلاً وأنا أفكر في القيام والنظر إلى المرآة، وتحسست ذقني فوجدتها خشنة، وشعرت بجسمي لزجًا تفوح منه رائحة العرق، والتراب حول عنقي وفي رموش عيني.. واكتشفت فجأة أني نائم بملابسي كاملة.. حتى حذائي لم أخلعه، وقمت فزعًا، ونظرت في الساعة فوجدتها الخامسة.. صباحًا أم مساء.. لا أعرف.. إن الضوء قد ينبئ عن الشروق أو الغروب، واتجهت إلى المرآة، وبحلقت فيها فلم أعرف نفسي.. كنت أقرب إلى الغوريلا من بني آدم.. وجلست على حافة السرير يائسًا لا أدري من أين أبدأ، كي أصلح مظهري.. ولكني لم أصنع شيئًا، وسرحت مرة أخرى مع الجبل وأهله.

كنت كمن أفاق من النوم بعد حلم غريب.. يحاول أن يتذكر تفاصيله.. وحاولت أن أقنع نفسي بأني لم أكن أحلم فذهبت محاولاتي عبثًا، ولازمني الإحساس بأن كل ما رأيته في الجبل ليس حقيقة وإنما حلم.. العمدة، والرجل الذي كان يحرسه وكاد يقتلني ببندقيته، والمقبرة الفرعونية التي رأيت على جدرانها صور الفلاحين والفراعنة، والرجل الذي دعاني إلى شرب الشاي في كهفه بعد أن أمسك بخناقي.. ومسعدة والشيخ طلباوي.. و"حسين علي".. والمقبرة التي رأيت "الخوجاية" تصلي فيها للفراعنة.

وظلت الصور والشخصيات تدور في رأسي بلا هدف أو مغزى، حتى سمعت خارج الغرفة صوتًا أجش يسأل:

fb/mashro3pdf

- كام صندوق بيرة عندك؟

فأخرجني الصوت من خمولي تمامًا، وخرجت من الغرفة فرأيت رجلاً مهيبًا يلبس جلبابًا بلديًا، ينظر إلي في فضول.

وأرشدني الرجل في رقة بالغة.. لا تتفق مع مظهره المهيب إلى الحمام، وعلمت منه أننا في الخامسة بعد الظهر وأن الشمس قد غربت، وأحضر لي أدوات الحلاقة ومناشف نظيفة، وزجاجة كولونيا، وقبل أن يتركني، قال مقدمًا نفسه لي:

- أنا عبد الصمد.

فنظرت إليه في دهشة، وسألته على الفور:

- أنت المقاول؟

فأجاب باسمًا:

- أيوه.

إنه أحد رجال الجبل ولا شك، نفس القامة الفارعة، والمنظر المهيب والصوت الأجش العميق، لولا بعض النعومة المصطنعة التي تختلف تمامًا عن الرقة التي وجدتها في رجال الجبل.. رقة عبد الصمد ظاهرة، فيها تقليد كبير لأبناء المدينة، أما رقة الآخرين فراسية في أعماقهم، لم أكتشفها حتى غيرت مظهرهم الخشن ولقاءهم الجاف أول الأمر.

وقلت لعبد الصمد قبل أن ينصرف:

- البنايات ح تخلص امتى؟

fb/mashro3pdf

فابتسم عن أسنان بيضاء لمعت في وجهه الأسمر وقال في اهتمام شديد:

- والله يا بيه كفاية بنايات، وبلاش دوشة دماغ، والحكومة تعمل البنايات دي لوكاندة للسياح.. وأنا مستعد أعملها لوكاندة عظيمة.. وأجيب فيها الأكل المفتخر والشرب.. ويسكي.. ونبيت.. وبيرة.. وكل حاجة يعوزها السياح إيه رأي سعادتك؟

وفتحت صنبور المياه وقلت له:

- فكرة.

وانصرفت عنه إلى غسل وجهي بينما وقف هو برهة متململاً ثم انصرف.

وخرجت من الحمام، وما زال اقتراح عبد الصمد يدور في رأسي، وأنا أعجب للنهاية التي يريدها هذا الرجل للمشكلة القائمة.. إنه يريد أن يضرب عصفورين بحجر.. يرضى أهله في الجبل، فلا يضطرون إلى سكنى البنايات، وهو يمضي في طريقه مستغلاً هذا المشروع لمصلحته الخاصة.

وقابلت عبد الصمد ينتظرني في آخر الممر، وقد اتسعت ابتسامته.. إنه دائم الابتسام، كأنه يدرب نفسه فعلاً على مهنة مدير فندق من واجبه الترحيب بالنزلاء.

وقال عبد الصمد في قلق:

- سعادتك موش ح تكلم البيه المهندس في فكرة اللوكاندة.. فسألته في دهشة:

fb/mashro3pdf

- أكلمه ليه.
- خسارة البنايات دي في أهل الجبل.. ح يوسخوها.. وكمان مغرضهمش يسكنوا فيها.. والسياح محتاجين للوكاندة على الشط الغربي جنب الآثار.. بيحبوا يعيشوا في الجبل.. فيه تغيير عن اللوكاندات اللي في البر الشرجي.

قلت له وقد زاد فضولي:

- والمهندس موافق على الفكرة؟

فتردد الرجل ثم قال في ضيق:

- أبدًا.. المهندس غرضه يتم مشروعه.

وقلت لعبد الصمد وعلى شفتي ابتسامة أكبر من ابتسامته:

- وعايزني أكلم المهندس ليه؟

فأجاب الرجل في ارتباك:

- سعادتك اللي جاي تحجج وتفصل في الموضوع كله.. والمهندس معاه دلوقت موظف كبير من وزارة المعارف بيكلمه علشان ياخدوا البنايات للتلاميذ.

وصرخت في غير تصديق:

- تلاميذ إيه..حتى الحكومة نسيت المشروع ده معمول علشان إيه!

ولم يفهمني عبد الصمد، ونظر إليَّ متسائلاً يريد أن يعرف مغزى سؤالي:

fb/mashro3pdf

فسألته في حدة:

- المهندس فين؟

فأشار إلى الخارج وقال:

- جاعد بره.

وقابلني المهندس منفعلاً، وكن يجلس معه رجل سمين قصير، تفحصني بعينين مستريبتين قبل أن ينهض يمد إليَّ يدًا لينة طرية ليصافحني.

وما كاد المهندس يفرغ من تقديم كل منا للآخر، حتى انهمك من جديد في المناقشة التي كانت تبدو حامية بينه وبين ضيفه.

قال المهندس وهو ينظر إليَّ كأنه يريد الاستعانة بي:

- أنا أنتحر ولا سبش القرية دي للتلاميذ، أنا موش باني عنابر نوم.. أنا باني بيوت للفلاحين سكنوا فيها، عائلات.. أب وأم وأولاد، أسرة كاملة مش ولاد مرهقين يتنطوا هنا وهناك.. أوه يا ربي.. مستحيل.

ورمقه الرجل السمين بعينين باردتين كعيني سمكة ميتة وقال له في صوت رفيع مرتفع.. صوت رجل أمضى أغلب حياته يدرِّس للتلاميذ..

- بس ما تزعلش مني.. دا مجرد اقتراح باعرضه عليك.. أنا سمعت بالمشاكل الموجودة بالنسبة للقرية دي، ولما استلمت عملي الجديد، وبقيت مسئولاً عن تنظيم رحلات المدارس، فكرت في أن أحسن وسيلة للاستفادة من القرية.. هي أن الطلبة ينزلوا فيها في رحلاتهم

fb/mashro3pdf

الشتوية في الأقصر.. دي بنايات واسعة وممكن توفر علينا فلوس كتير.. وقلت أعرض عليك الفكرة قبل ما أتكلم مع معالي الوزير.. الأصول كده.

- فانتفض المهندس قائلاً في ثورة:
- حتى الوزارة حتخذلني.. طيب أنا بقول إن الرجالة في الجبل جهلة مبيفهموش، ولازم نمدِّنهم بالقوة.. تقوم الوزارة كمان متفهمش.. موش هيه اللي وافقت على المشروع.. موش هيه اللي اتحمست له. الوزير السابق اللي وافق على المشروع كان عايز يعمم التجربة بعد نجاحها هنا.

فقاطعه الموظف في برود قاتل:

- لكن التجربة باين عليها موش ح تنجح.

فصرخ المهندس:

- ح تنجح بالقوة.. الناس موش عايزة تتمدن إلا بضرب الكرباج.
- طيب إذا كان ده اللي عايزينه، نضربهم بالكرباج.

والتفت إليَّ المهندس فجأة وقال:

- أنت جيت الصبح دقنك طويلة.. وحلقتها.. حد قال لك تحلق دقنك والا شعورك بالنضافة هو اللي خلاك تحلقها؟

فقلت له، وقد فقدت كل إحساسي بجدية المناقشة.. وكأن ما يدور أمامي فصل هزلي.

fb/mashro3pdf

قلت هازلاً:

- يعني لو ما كنتش حلقتها.. كنت ضربتني بالكرباج علشان أحلقها؟

فنظر إليَّ في غيظ وقال في عصبية:

- أرجوك تفهمني.. أرجوك.. دي مسألة خطيرة.. وفضيحة عالمية، سمعتنا في العالم ح تبقى طين.. أنتم ما تعرفوش أد إيه مهتمين بالمشروع ده في أوروبا وأمريكا.. دا عمل العمر كله.. اسمه ارتبط بيه، موش كل مهندس تيجي له فرصة إنه يبني بلد.. أنا جت لي الفرصة.. لكن أنا عارف إن فيه أعداء كتير بيحسدوني، وعايزين يحطموا المشروع.. أنا ح حارب موش ح أقف ساكت.

وبدأت السخرية التي أشعر بها تتحول إلى قرف وغثيان.. كل كلام أسمعه هنا، ينتهي إلى المصلحة الشخصية.. عبد الصمد يبحث عن الربح من وراء فندق، والموظف السمين يبحث عن مشروع جديد يتباهى به أمام الوزير، والمهندس حريص على سمعته العالمية، لا أحد يذكر أهل الجبل، إنهم لا يفكرون فيهم على الإطلاق.

ولمع في رأسي خاطر غريب.

سينتصر أهل الجبل في مشكلتهم من حيث لا يتوقعون أنهم لن يهبطوا القرية النموذجية، لأن الذين بنوها بدأوا يتشاجرون عليها، دب الانقسام في صفوفهم بعد أن ارتفعت المباني ورأوها بعيونهم، ذهب الكلام الأجوف الذي كانوا يتشدقون به عن تحسين حالة الفقراء الذين يعيشون

fb/mashro3pdf

في الكهوف.. وظهرت الأسباب الحقيقية الكامنة وراء المشروع.. ربح شخصي.. أو مجد شخصي، ومن يدري ماذا ستأتي به الأيام، من أفكار أخرى لرجال ذوي أطماع جديدة في هذه القرية.

وقمت مستأذنًا أريد الانصراف لأعود إلى الأقصر. و لم تفلح محاولات المهندس في إبقائي تلك الليلة معه.

وعبرت النيل وقد أقبل الليل.. وذهبت إلى بيت صديقي وكيل النيابة، فوجدته غارقًا بين قضاياه، يفحصها فوق منضدته الخشبية، وهو جالس كعادته بالقميص واللباس.. وحاول أن يؤكد لي أنه كان قلقًا على مصيري بعد غيابي الطويل في الجبل، ولكنه لم يفسر لي لماذا لم يتخذ أي إجراء للبحث عني.. لعله وجد في قلقه عليَّ تسلية جديدة له، فاكتفى بهذا القلق دون أن يصنع شيئًا.

واستمعت إليه وأنا أغير ملابسي الداخلية، وأعد حقيبتي لألحق بقطار الليل العائد إلى القاهرة.

وقال لي وهو ينقر بقلمه الرصاص على ملف القضية أمامه:

– هيه.. اتأخرت ليه.. لازم انبسطت؟

واحترت، ماذا أقول له.. منذ عودتي من الجبل، وأنا أسمع كلامًا.. وأتلقى أسئلة. لا صلة لها بما أشعر به داخل نفسي.

قلت له.. أي كلام:

– أيوه انبسطت.

fb/mashro3pdf

قال في فضول وانفعال:

– شفت المهندس.. الأميرة مجتش تزوركم وأنت هناك؟

فأجبته وأنا أرثى لحاله.. إن الأميرة لا تفارق خياله أبدًا.

– لأ ما جتش.

وصاح في أسى وهو يرمي بقلمه على المائدة:

– خسارة.. فاتتك فرصة العمر.

وكنت على وشك أن أروي له ما شاهدته في الجبل، ولكني عدلت كأن كل ما سمعته سر خاص بي، لا يصح أن أبوح به لغريب.. كان يبدو غريبًا عني.. كأن لم تكن بيننا صداقة يومًا ما.

ورفضت إلحاحه عليَّ في قضاء الليلة معه، وصممت على السفر، فترك قضاياه، وارتدى ملابسه، وخرج معي إلى المحطة يودعني.. وظل يتكلم معي في كل شيء.. عن القاهرة والنساء ورغبته في الزواج، وحيرته في اختيار زوجة تصلح له، وبائعة الفراخ الحلوة التي تتردد على بيته، وفجأة سألني:

– على فكرة. أنت عملت إيه في التحقيق؟

فقلت وأنا أهز كتفي:

– ولا حاجة..

وضحك قائلاً:

– الحقيقة أنا موش فاهم إيه فايدة التحقيقات بتاعتكم.. بتحققوا إزاي من غير ما تكون معاكم نيابة وبوليس.. فيه تحقيق ينفع مع

fb/mashro3pdf

ناس ذي دول من غير ما تقبض على عشرة خمستاشر وتفضل تقرر فيهم.. وبرضه ما فيش فايدة.. مستحيل يتكلموا.. اتعودوا يصفوا مشاكلهم بينهم وبين أنفسهم على طريقتهم.

***

وقابلني مدير التحقيقات متهللاً.. وعانقني في حرارة كأنه يريد أن يتأكد وهو يضمني إليه أني عدت فعلاً، سالمًا معافًا من عند الحرامية.

وسألني في لهفة:

– هيه.. عملت إيه هناك؟

فمددت يدي بملف التحقيق، وما كاد ينظر إليه، حتى اتسعت عيناه ذعرًا.. كان الملف خاليًا من الأوراق، ليست فيه غير شكوى "حسين علي".

وصاح المدير.

– التحقيق راح فين.. إوعى يكون ضاع منك؟

فقلت في هدوء:

– أبدًا.. هو ده التحقيق.

وسألني في دهشة وهو يفحصني بنظرات مستريبة:

– إزاي ده التحقيق.. أنا موش فاهم.. إيه اللي حصل؟

fb/mashro3pdf

وأجبته في برود:

- ولا حاجة.. "حسين علي" كاتب الشكوى، لقيته مسافر الواحات.. وما حدش عارف ح يرجع امتى.

فصاح في انفعال:

- والاختلاسات اللي في القرية النموذجية.. معملتش فيها حاجة؟

قلت في برود أكبر:

- ولا حاجة.. نبعث مفتش إداري يعمل جرد وخلاص.

وتنهد المدير في ضيق وقال في غيظ:

- طيب اكتب مذكرة بانتداب مفتش إداري.

ورفع يده يائسًا وقال:

- أنا موش عارف أبعت الملف ده إزاي للوزارة، وما فيش ورقة تحقيق واحدة.. أنت سافرت على حساب الحكومة.. لازم تثبت لها إنك اشتغلت.. كويس يقولوا إنك رحت تتفرج على الآثار.

قلت في عناد:

- يعني كنت عايزني أعمل إيه؟

فهتف في حدة:

- لسه ح أقولك تعمل إيه.. اسأل كام واحد.. اسأل المهندس والمعاون.. اسأل كبير مفتشي الآثار.. كنت تقدر تعمل محضر يملا العين.. هي شغلانة يا أخي.

fb/mashro3pdf

وتركته وأنا أشعر بأني لم أعد صالحًا كي أكون مفتشًا للتحقيقات..

وجرفني تيار الحياة في القاهرة بعيدًا عن أهل الجبل. ومرت بي الأيام والشهور.. وأنا أهمل كل تحقيق أكلف به.

وتكدست ملفات القضايا في درج مكتبي.. دون أن أفتحها.. ولم يكن واضحًا في ذهني أن هناك علاقة بين إهمالي للعمل والتجربة التي مررت بها في جبل في الصعيد، كل ما أدركته في ذلك الوقت.. أن إهمالي بدأ بعد عودتي من هناك.

وانقطعت صلتي تمامًا بأهل الجبل.. لم أعد أسمع عنهم، لكن ذكراهم كانت تغمرني فجأة في أي وقت وفي أي مكان كألم مفاجئ ينقبض له صدري.. ويدفعني إلى حزن غامض يستولي عليَّ لفترة من الوقت.

وكنت أتساءل: ترى هل استمروا في كحتهم، وهل حصلوا على الكنز سرًا.. دون أن يدري أحد.. ترى هل انتصر المهندس وأجبرهم على سكنى البنايات، ماذا حدث لـ"حسين علي".. والعمدة، ومسعدة، و"الخوجاية"، أسئلة كثيرة تمر بخاطري، وأتلفت حولي، فلا أجد أحدًا يعلم عنها شيئًا، أو عنده الجواب عنها.

ومرت سنتان، واضطررت إلى الاستقالة، بعد أن أصبحت مصدر متاعب جمة لمدير التحقيقات بكثرة غيابي عن العمل.. ولم يخطر ببالي أني سأستقيل بسبب فشلي في تحقيق الجبل.. كل ما حدث أني تذكرت هذه القضية بعد أن وقعت استقالتي مباشرة، وكان مدير التحقيقات يقرأ

fb/mashro3pdf

الاستقالة وهو لا يكتم ارتياحه الظاهر في عينيه للتخلص مني.. أما أنا فقد شغلت عنه وسرحت بخيالي فجأة مع الكهوف والمقابر الفرعونية وسكانها.

وظن المدير أني متأثر للاستقالة.

فوضع على شفتيه ابتسامة مصطنعة وقال:

- هيه.. ما تعدل عنها، وخليك معانا.. أنت باين عليك زعلان.

- الحقيقة أنا سايب ورايا ذكريات كتير.

وقال في شبه سخرية:

- ذكريات إيه اللي الواحد يهتم بيها في وظيفته.. ذكريات كلها تعب وشقا.

قلت له وأنا أحاول الابتسام:

- على رأيك.

وكان هذا هو آخر عهدي بالتحقيقات

وسمعت بعد ذلك عن أهل الجبل، قرأت يومًا في الصحف نبأ عدول الحكومة عن مشروع القرية النموذجية وإسكان الأهالي فيها.

لقد انتصروا.. وأثبتوا في انتصارهم فشل كل مشروع يقوم من أجل أسباب لا صلة لها بالإصلاح الحقيقي.. ما أكثر المشروعات البراقة التي تتخذ قناع الإصلاح.. ثم يتضح أنها قامت من أجل مصلحة شخصية، أو مجد شخصي، أو فكرة خاطئة، أو محاولة ساذجة لتقليد أوروبا وأمريكا..

fb/mashro3pdf

الإصلاح يجب أن يكون للإصلاح، يجب أن يكون لمصلحة الذين يعد من أجلهم المشروع الإصلاحي.. وهذا هو آخر ما فكر فيه من قاموا بمشروع القرية النموذجية.. فكروا في شكل القرية من الناحية الهندسية الفنية، وفكروا في السياح الذين سيشاهدون القرية فيعجبون بها ويقولون عنا إننا نعمل على ترقية مستوى الفقراء، وفكروا في الدعاية الضخمة التي سنكسبها من وراء هذه البنايات.. و لم يفكروا أبدًا في كيف يعيش الأهالي الفقراء، بلا عمل بعد بناء هذه القرية.

إن القرية النموذجية رمز.. وليست مجرد حادث عرضي وقع في بقعة نائية عن بلدنا.. إنها رمز للمشروعات المتلاحقة التي نصفق لها في حمية وحماس.. ثم ننساها بسرعة بعد فشلها، لأننا نخجل من ذكراها.

المشروعات أصبحت كالموضة، تثور حولها الضجة وتلمع بمناسبتها بعض الأسماء، ثم تختفي ولا يبقى منها أثر نافع للناس، ثم تثور ضجة جديدة حول مشروعات أخرى جديدة.

كم هو مفزع حقًا أن تستمر هذه الحال.

وروى لي بعض أصدقائي من الفنانين الذين ذهبوا إلى الأقصر وعادوا، بعض ما كانوا يشاهدونه في الجبل، كنت أسألهم عن العمدة و"حسين علي" أو مسعدة فيهزون رؤوسهم ويقولون إنهم لا يعرفونهم، ولكنهم شاهدوا "الخوجاية" أكثر من مرة، وهي تجمع القطط الضالة، والكلاب المريضة وتعتني بها.

fb/mashro3pdf

ووصفوا لي القرية، وهي خاوية تسكنها الأشباح، تخلى عنها الجميع، وبقيت بجدرانها، ومسجدها ومدرستها وبيوتها، صامتة يعلوها التراب، وتعوي فيها الرياح.

ماذا يصنع أهل الجبل الآن بعد أن استقروا في كهوفهم، وزال عنهم خطر الانتقال إلى القرية.. إن آخر كلمات "حسين علي"، وهو يودعني، هي أن زوجته تلح عليه كل ليلة في إتمام الكحت.

وقلت له وأنا ألمح بنايات القرية النموذجية قبل أن أفارقه:

- وح تعمل إيه يا حسين؟

فنظر إلي نظرة عميقة وقال:

- الكحت مكتوب علينا.. كل ما الواحد يهرب منه يلاجيه جدامه.

وارتفع صوته في انفعال:

- لو مكحتش أعمل إيه. أنا عارف كل حاجة، وشايف بعيني اللي ح يجرى.. وأنا باضرب في الحجر.. وباموت تحتيه.. وشايف ولادي وهم بيضربوا في الحجر وبيموتوا تحتيه.. لكن أعمل إيه.. مكتوب علينا.

قلت له وأنا أمد يدي إليه مصافحًا:

- أنا راجع مصر يا حسين.. عايز مني حاجة؟

fb/mashro3pdf

فقال في حرارة:

– عايز سلامتك.. ابجى ارجع زورنا.

وابتسم في مرارة وقال:

– يمكن تلاجيني النوبة الجاية.. بجطع الإيدين والرجلين.. قلت له وأنا أكاد أبكي، لولا التعب والإجهاد الذي شل كل شيء في حتى دموعي:

– متقولش كده يا حسين.. سلامتك يا راجل.. الدنيا أحسن من كده بكتير.

قال وهو يشد على يدي بقوة:

– الله يسلمك أنت يا راجل.

ومضيت في طريقي إلى القرية النموذجية وكان هذا آخر عهدي به.. لم أعد أسمعه أو أراه.

***

آخر مرة سمعت فيها عن أهل الجبل في صباح يوم من أيام الشتاء الماضي، كنت أقرأ صحف الصباح، وإذا بي أجد في الصفحات الأولى لجميع الصحف، خبرًا عن زيارة الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس الإندونيسي "سوكارنو" للمقابر الفرعونية في الشاطئ الغربي للنيل المقابل للأقصر.. وزاروا مقبرة في نفس منطقة أهل الجبل.

وكتبت الصحف تقول: إنه بينما الرئيسان يغادران المقبرة اعترضهما عمدة الجبل، وصمم على دعوتهما للجلوس معه.. وجلسا معه على دكة خشبية، وقدم لهما البرتقال.

fb/mashro3pdf

وخفق قلبي وأنا أقرأ الخبر.. العمدة ما زال بخير بعد كل هذه السنين.. إنه ما زال يدعو ضيوفه ويرحب بهم ويقوم بواجبه كعمدة، فيقدم لهم "البرتقانات".

fb/mashro3pdf

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت: ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة ت: ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة - ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة -ت: ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت: ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع محطة المساحة- الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة
ت: ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية - ت: ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦ مدخل أ - الإسماعيلية - ت: ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة - الجامعة الجديدة - الإسماعيلية - ت: ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة ناصية ش ١١٤- بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى - أسوان - ت: ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة دمنهور
ش عبد السلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة المبتديان
١٣ ش المبتديان - السيدة زينب امام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت: ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة - ت: ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أسيوط
٦٠ ش الجمهورية - أسيوط
ت: ٠٨٨/٢٣٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب - المنيا - ت: ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب - جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت: ٠٤/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة المنصورة
٥ ش الثورة - المنصورة - ت: ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية - جامعة منوف

fb/mashro3pdf

مكتبـــات ووكـلاء
البيع بالدول العربية

لبنان

١- مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صبدنايا المصيطبة - بناية الدوحة - بيروت
ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب: ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢- مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيـروت - الفرع الجديد - شارع الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماريبا
ص. ب: ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -
سوريا - دمشق - شارع كرجية حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣١٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة - ٤ شارع الطاهر صفر -
٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية.

المملكة العربية السعودية

١- مؤسسة العبيكان - الرياض
(ص - ب : ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق طريق الملك فهد مع طريق العروبة - ت: ٤٦٥٤٤٢٤-
٤١٦٠٠١٨

٢- شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية
جدة - الشرفية - شارع السنين - ص ب ٧٤٦ ٣
جـدة: ٢١٤٨٧ - ت: المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٠٦٥٧٠٦٢٨

٣- مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -
الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١ -

٤- مؤسسة عبـد الرحـمن السديـري الخيـرية
- الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجـوف - ت: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠
فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١- دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢- دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥+
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الاردن.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ISBN# 9789774217756
6 221149 020382

٢ جنيهات